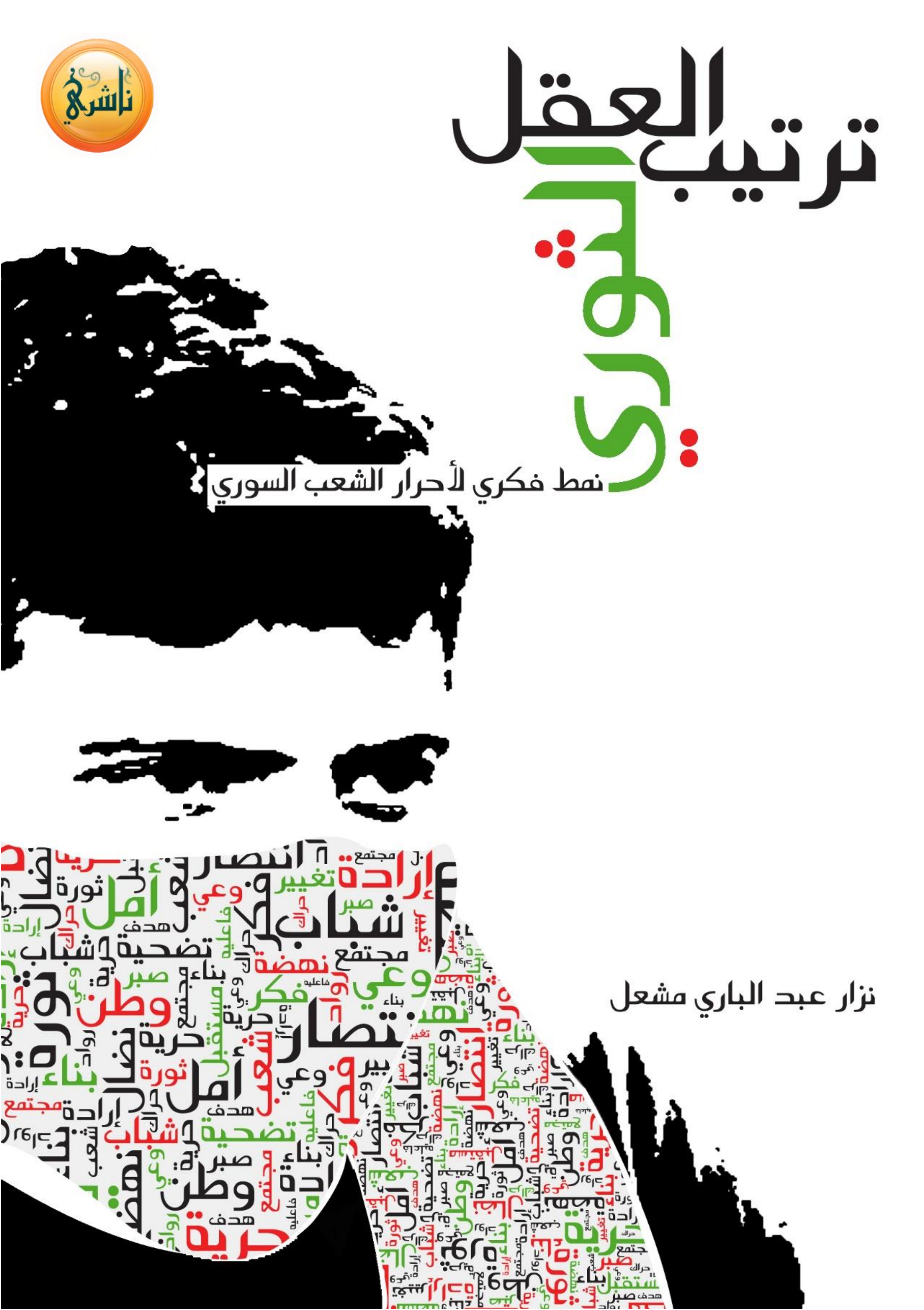
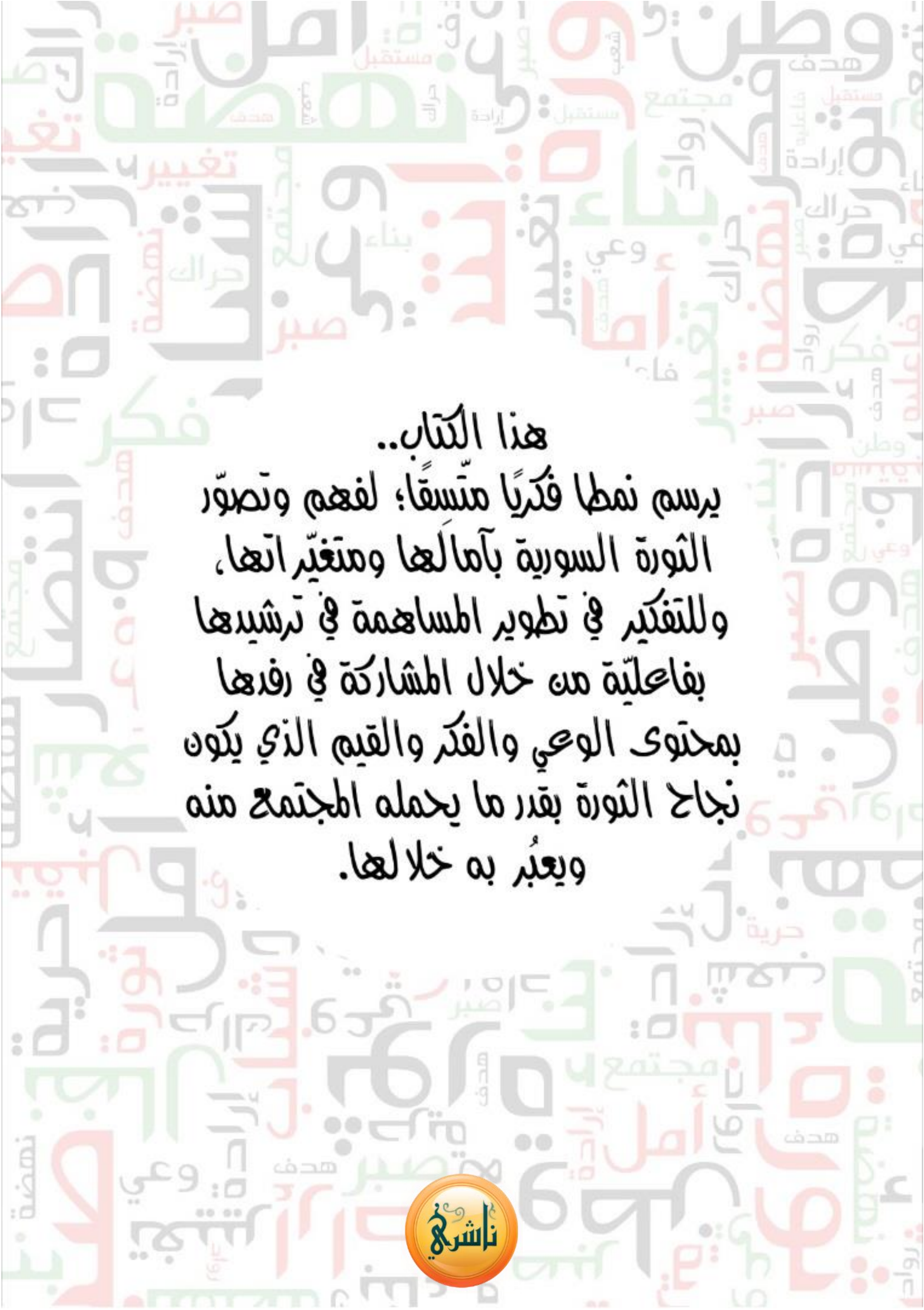


ناشري
ترتيب العقل السوري
نمط فكري لأحرار الشعب السوري
نزار عبد الباري مشعل



هذا الكتاب..

يرسم نمطا فكريًا متّسقًا؛ لفهم وتصوّر
الثورة السورية بآمالها ومتغيّراتها،
وللتفكير في تطوير المساهمة في ترشيدها
بفاعليّة من خلال المشاركة في رفدها
بمحتوى الوعي والفكر والقيم الذي يكون
نجاح الثورة بقدر ما يحمله المجتمع منه
ويعبُر به خلالها.

بسم الله الرحمن الرحيم

تصميم الغلاف: منار مشعل

استخدمت في الغلاف صورة حقيقية لشاب من ثوار سورية

نشر إلكترونيا في شوال، 1435/أغسطس، 2014.



www.Nashiri.Net

هذا الكتاب (ترتيب العقل الثوري) يرســـم نمطا فكريًا متّسِـــقًا؛ لفهم وتصـــوّر الثورة الســـورية بمآلاتها ومتغيّراتها، وللتفكير في تطوير المســـاهمة في ترشـــيدها بفاعليّة من خلال المشـــاركة في رفدها بمحتوى الوعي والفكر والقيم الذي يكون نجاح الثورة بقدر ما يحمله المجتمع من هذا المحتوى ويعبر به خلالها.

للتداول حول الكتاب

www.facebook.com/Nizar.Watan

www.goodreads.com

للتواصل

nizar.mashal@gmail.com

ترتيب العقل الثوري

نمط فكري لأحرار الشعب السوري

تأليف

نزار عبد الباري مشعل

المحتوى


ترتيب العقل الثوري
منطق الأمل
واجب النصرة
ضرورة الفكر
تفكيك الاقصاء
واقع الاختلاف
العوامل الذاتية
توحيد الرؤية
توظيف الدين
استراتيجيات الصراع


البداية



البداية

كانت البداية منشورات على facebook وتغريدات على twitter في حساباتي الشخصية، بدأت مع ثورة الحرية والكرامة السورية في مارس/آذار 2011. أذكر يوم رأيت الحلم بسورية المستقبل يطل على الواقع من عالم الخيال وبإرادة الشباب في 15 آذار. وأذكر يوم علمت أن الشعب السوري اختار طريقه وكسر القيود وأعلن بداية سقوط السلطات المستبدة والسارقة للوطن في 18 آذار يوم كتبت: ما أجمل الشعوب عندما تتجاوز التوقعات، وستكون أجمل عندما تفوق ما ينتظر منها. وأذكر كيف شهدت عظمة الجلال والجمال في هذا الشعب في 25 آذار لأكتب حينها: اليوم نطق الشعب السوري كاسرا حاجز الخوف ومعلنًا ثورته.

ولم يكن شعور الأمل وحده ما تملّكني في متابعتي مجريات الثورة وعند الوقوف مع أحرار الشعب السوري، فما زلت أذكر ما دعاني لأكتب في 15 آذار: في فمي ماء. وما كتبت في 28 مايو/أيار: إنه الخوف من المجهول ما يعتريني ويقلقني على أحرار سورية، المجهول الذي فيه الكثير من التضحيات، وفيه حتمية الحاجة لتدخل خارجي لحسم الموقف في حال

استمرار النظام بنفس الاستراتيجية، وعدم تكوّن نواة قيادة وطنية قادرة أن تتفق على كيفية التوجيه والإدارة.

وباجتماع الأمل والخوف، الأمل بالمستقبل والخوف على الوطن وأحراره، تحفّز الفكر لواجب المساهمة في رفد الثورة السورية بالمحتوى الذي يخدم التعبيرَ عما في مكنونها من جمال، ويخدم الإشارةَ إلى ما في حراكها ومحيطها من ملفات تحتاج للعمل بالنقد والتفكيك وإعادة الترتيب. وكانت مع غيرها، المنشورات والتغريدات التي شكلت قرابة نصف مادة سلسلة مقالات نشرت على موقع المركز السوري للدراسات والأبحاث التابع لمنظومة وطن.

ثم جاء هذا الكتاب (ترتيب العقل الثوري) يرسم نمطا فكريًا متّسِقًا؛ لفهم وتصوّر الثورة السورية بآمالها ومتغيّراتها، وللتفكير في تطوير المساهمة في ترشيدها بفاعليّة من خلال المشاركة في رفدها بمحتوى الوعي والفكر والقيم الذي يكون نجاح الثورة بقدر ما يحمله المجتمع من هذا المحتوى ويعبر به خلالها.



من أين يأتي الأمل



من أين يأتي الأمل

إشراقة الأمل

اعتاد قلبي الأسى على حال أمتي ومطاردة الحلم بنهضتها في يومي والنوم بسكينة على وردي، ثم عاصرت جرائم الطغاة فجمع قلبي مع الأسى الألم، وراجعت إيماني فأبى إلا أن يأتي بالأمل. وتذكرت أن الحكيم من يميز ذا القيمة وسط الركام، ومن يرعى الأمل ليولد من رحم اليأس، من يبصر خيوط الشمس ليرسم الطريق في الظلام. وكهذا كانت حكمة ثورة الحرية والكرامة؛ إذ وجدت في الاستبداد داعية نضال الحرية لا مبرر خنوع العبودية، ووجدت في الصّعاب حماسة التحدي لا قناعة القعود، فأطلقتها لحظة غلبت فيها إشراقة الأمل ظلمات اليأس.

الصورة الذهنية

استعمر الله الإنسان في الأرض، وكل فهم التكليف بحسبه، فذهب أقوام لعمارة أعمارهم في الأرض بالملذات، وآخرون لعمارة ديارهم بالأحجار، وقلة لعمارة الأوطان بالإنسان. وقدم كل ما يخدم غرضه؛ فغلب في أوقات الأولين السعي للراحة ورفاهية النفوس والأبدان، وغلب في همّ الآخرين حسن تشييد المباني ورصف الطرقات، وغلب في تطلعات القلة البحث في تكوين الإنسان وتطوير ممكناته وإطلاق قدراته. وعلى ما سبق من اختلاف، اختلفت صورة الثورة الذهنية في وعي كل منهم، فكانت عند الأولين قطع الملذات وعند الآخرين دمار العمران وعند القلة

فرصة إعادة بناء الإنسان. وهكذا، مع أن في قلب كل منا نفحة من روحِ كلٍّ من تلك النفوس، كانت قلوب القلّة مصدر إشعاع للأمل.

نعم منطقتنا العربية مضروبة في عمقها بجذور من الأفكار القاتلة، لكن روح الثورة التي سرت فيها نقضت تماسك أعظم تلك الجذور؛ الاستبداد والاستعباد، ونثرت بذور الحرية والكرامة، فكان الربيع العربي. ربيعٌ يتيح برعاية بذور الحرية والكرامة الفرصة للمبادرين لتفكيك الأفكار القاتلة، وغرس الأفكار الباعثة لإنسان النهضة. نعم، ربيعٌ ستنتصر فيه الثورة السورية، ثورة الحرية والكرامة، وقد دمّر النظام الغاصب سورية ماديا لكنه أطلق ثورة وضعت حجر الأساس لبناء الإنسان، إنسان النهضة. نعم، لقد أعاد الربيع العربي الأمل بالأمة؛ لصدعها بالحق وقطعه داعي اليأس منها الوارد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيت أمتي تهابُ، فلا تقول للظالم: يا ظالم، فقد تودِّع منهم."

بناء الإنسان

فرق بين من يقرأ في الأحداث مبررات الخسران، ومن يقرأ فيها عوامل الانتصار. بالرغم من خجلي كإنسان من التخاذل العالمي في نصرة الشعوب المظلومة، كان في تبعات هذا الخذلان على الشعب السوري أملٌ يولد من رحم الخذلان. لقد أكدّ التخاذل العالمي في نصرة الشعب السوري في أول محطة أن الثورة شعلة وطنية بامتياز، وليست صنيعة أيدٍ

رحم الخذلان

مدسوسة أو مؤامرات خارجية، وحين يكافح المرء من أجل وطنه يمضي في كفاحه حتى النهاية. وكان في هذا الخذلان العالمي داعي تكاتف أبناء الوطن من أحرار الداخل والخارج، فطالت الثورة حتى أتت على بعض رواسب الاستبداد في النفوس فنفضتها وعرّتها، وحتى امتدت يد كل حرّ لدعم الصامدين وللمساهمة في اسقاط الظالمين، وحتى تكشّفت أقنعة النظام التي كان يغطي بها قبح نفسه، وتكشّف زيف تبريرات المتنفّعين من وجوده والقاعدين الرّاكنين إليه. وحقق الخذلان العالمي في قلوب المؤمنين معنى التوكل على الله، وقطعَ الرجاء فيما سواه وانتظارَ النصر من عند غيره. وإني أرى بيارق النصر في الشام تلوح، في قلوب متآلفة وأنفس تائقة ووجوه مستبشرة وجهود متكاملة وأرواح بربها متعلقة. فهنيئا لنا أحرار سورية انتصاراتنا قبل التحرير، هنيئا لنا انتصارنا على الفرقة.. على الخضوع.. على اليأس.. على التناحر.. على التعلق بغير الله.

انفكاك وعبور

الثورة لحظة انفكاك، تعبر بالمجتمع من حقبة إلى أخرى وإن أسعف النظام القديم نفسه أو بقيت بعض عوالقه أو تكررت بعض مشاهده أو ضعفت أساسات الجديد. فلك البشرى بلادي برغم الآلام؛ فالربيع العربي لحظة الانفكاك التاريخية لنا من ماضي الظلم والظلام. في عام 1789م، بدأت الثورة الفرنسية بالرغم من أن الملك أعاد الانتخابات بعد أكثر من 170 سنة وحسن النظام الانتخابي. وفي 1791م بعد عامين، وقع الملك

الدستور ليكون نظام البلاد ملكية دستورية، ولم يشفع له ذلك ليعدم عام 1792م وتعلن الجمهورية الفرنسية. وفي عام 1799م، أنشأ نابليون نظام استبداد سياسي أنهى عهد الجمهورية الأولى عام 1804م بإعلانه فرنسا امبراطورية استمرت حتى انكسار نابليون العسكري عام 1814م الذي عادت معه الملكية واستمرت 34 سنة. عام 1848م، قامت الجمهورية الفرنسية الثانية وانتخبت رئيسا واستمرت حتى قيام نابليون الثالث بانقلاب استفرد على إثره بالسلطة وأعلن قيام امبراطورية فرنسا الثانية عام 1851م. استمرت الإمبراطورية الثانية حتى 1870م لتنهار وتعلن الجمهورية الفرنسية الثالثة بعد هزيمة نابليون الثالث ملك الامبراطورية الفرنسية أمام الجيوش الألمانية التي استولت على إقليم الإلزاس واللورين. استمرت الجهورية الفرنسية الثالثة بالرغم من الاضطرابات السياسية وتبدل الحكومات حتى عام 1940م عندما سقطت في قبضة الاحتلال الألماني. استمر الاحتلال الألماني حتى عام 1946م وإعلان الجمهورية الفرنسية الرابعة. وكانت الجمهورية الرابعة مرحلة نمو اقتصادي بالرغم من عدم الاستقرار، ومن ثم قامت على أنقاضها الجمهورية الفرنسية الخامسة الحالية عام 1958م. وهكذا وصلت فرنسا لبر الأمان في مسار تاريخي استمر قرابة

المائة والسبعين سنة تلتها الجمهورية الفرنسية الخامسة التي دام لها حتى الآن ما يزيد على 55 عاما.

وهكذا عندما نقرأ المسار التاريخي للربيع العربي الذي بدأ بثورة 14 جانفي/يناير 2011 التونسية، نعلم أن السنوات الماضية ليست شيئا في عمر التاريخ ولا في نضال الكفاح على طريق الانعتاق من الاستبداد. وفائدة الوعي السابق بالمسار التاريخي اختيار السير فيه مع تعظيم استغلال إيجابياته وحسن التعامل مع سلبياته. وباكتساب المجتمع للوعي من مخاض التجربة، يصبح الوعي أصيلا فاعلا فيه قادرا على ضمانة المستقبل. ولا عجب أن تمتد الثورة السورية وتحافظ على عنفوانها، فإن مجموع المظالم التي عاشها الشعب السوري على مدى خمسين عاما اختزنت طاقة ثورية لا تقصر عن العبور بالشعب السوري لمستقبل ليس فيه النظام القديم.

الوعي الضروري

فالمسار التاريخي لثورات الشعوب يؤول لتشكيل أنظمة مختلفة عن التي كانت تحكمها، مهما تعددت عثرات وسقطات الوليد الجديد. والتشبث بالقديم الذي ثارت عليه الشعوب خيار خاسر، ومعارضة تكوّن الجديد الذي تشكّله الأحداث خيار غير واقعي وخارج دائرة الممكن. فتطورات الحراك الثوري تشكل واقعا جديدا ولكل الخيار، إما أن يكون خارجه، أو يتشكل معه، أو يكون "مسهما" في ترشيده. فاختر لنفسك

واقع جديد

مدركا أن مسار التغيير والإصلاح يحسن بقدر ما يسهم العقلاء فيه ويرفدونه بالفكر ويعزّزون فيه القيم. فالثورات كما قال مالك بن نبي تخلق قيما اجتماعية جديدة صالحة لتغيير الإنسان، ولا تستطيع الوصول إلى أهدافها إذا هي لم تغير الإنسان بطريقة لا رجعة فيها من حيث سلوكه وأفكاره وكلماته، ولا تستطيع تغيير الإنسان إن لم تكن لها قاعدة أخلاقية قوية، وإنما نجاحها أو فشلها بقدر ما تحتفظ بمحتواها أو تضيعه في الطريق.



واقع يفرض المسؤولية



واقع يفرض المسؤولية

لم ينشئ أفراد أي مجتمع: "العقد الاجتماعي" الذي يحكمهم وينظم علاقتهم بالدولة ولكنه تكون تراكميا مما توافقوا عليه، وتطور بحسب مرونته ليتكيف معهم بتغير بعض ظروفهم. وكان أحيانا يتوقف تطوّر العقد الاجتماعي وتعجز شروطه عن التكيّف مع تغير ظروف العصر الجديد وتقصر مفرداته عن الحديث بلغته في مرحلة تتشكّل لتمثّل برزخا فاصلا بين حقبتين تاريخيتين، مرحلة يصبح فيها المجتمع بين خيار النكوص إلى العصر القديم والبقاء فيه وبين خيار القفز إلى العصر الجديد وافتتاحه. حينها قد لا تكون المصلحة في الحفاظ على العقد الاجتماعي القديم وتحسين شروطه بالرغم من أن تكلفة ذلك أقلّ في الغالب؛ لأنه يعني خروج المجتمع من دورة حضارية قد تصنع نهضته المنشودة.

القفز أو النكوص

عادة لا يختار مجتمع لحظة نقض العقد الاجتماعي الذي يحكمه، ولكنها لحظة انفلات لعقد مهترئ تجاوزه الزمن وأنكرته الوقائع حتى تباعدت أطرافه وتنكرت لبعضها. ثم يأتي دور المعضلات السياسية لتجعلَ القوةَ وأدواتَها كلَّ ما يملكه الحاكم في سياسة من دونه، قوة تشدّ العُقد ولا تحلُّها، وتنذر بانقطاع العقد الاجتماعي الذي يحفظ وجود الدولة، ويكون باستمرارها انقطاعه وإطلاق ثورة اختزنت طاقتَها من

واقع لا اختيار

الظلم الذي أوقعه الحاكم. وهكذا فإن الثورة ليست اختيارًا يُحمد أو يُلام عليه جَمع أو فَرد، ولكنها واقع يفرض المسؤولية على الجميع.

وباعتبار الثورة واقعا يفرض المسؤولية على الجميع وكونها محصلة تلاقي اليأس من القائم مع الأمل بالمستقبل بلحظة انفجار ما اختزنته الشعوب من ظلم في مسار حتمي يشكل واقعا جديدا، لا يصح تصور أحداث الربيع العربي على أنها اختيار جماعة أو أفراد. فمثل هذا التصور يسمح لأصحابه بتبرير الانفصال عن حركة التاريخ، والتفكير وفق قواعد الحقبة السابقة، والعمل باستصحاب واقعها وتجاهل تغيّر ظروفها. وعليه فثورات الربيع العربي مما يدخل في تصنيف واحد تحت مسمى الثورات الشعبية مع الثورة الفرنسية عام 1798 وثورات أوروبا الشرقية عام 1989 وغيرها؛ لأنها صدرت عن انفجارات شعبية وطبيعتها أن تفرز قيادة لاحقة منها. ولذا لا يرد فيها تحميل المسؤولية عن تكلفتها لغير جور الأنظمة المستبدة إذ لم تصدر الثورة عن تقدير سياسي أو عسكري لقيادة وإنما كانت حالة انفجار شعبي. وهذه الثورات الشعبية غير ما يدخل في التصنيف السياسي تحت حركات التمرد كالثورات التي تلت عصر صدر الإسلام: الحسين على معاوية رضي الله عنهما، وأهل المدينة على يزيد، وابن الزبير على الحجاج، وكالانقلابات العسكرية التي وصل بها العسكر لحكم الأقطار العربية؛ وذلك لأن

ثورة لا تمرد

حركات التمرد هذه والانقلابات إنما صدرت عن قيادة وقرارها. وإذا استحضرنا التاريخ، غالبا ما افتتحت الثورات الشعبية دورة حضارية أو عصرا أفضل، أما حركات التمرد والانقلاب فغالبا ما انتهت إلى واقع أسوأ.

ولا يستقيم لوم الضحية عن فعل جلادها أو التعذر بتقصيرها وخطئها أو قصور مداركها ووعيها؛ وإلا كان هذا المنطق مبرر إسلامها للظالم، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه." ولا حكم لمتسبب هنا غير ظلم الباغي الذي أطلق ثورة يَصدعُ فيها الشعب بالحق في وجه المستبد، ويجهرُ بالسوء لمن ظلمه، ويردُ بغي الظالم ويجاهدُه. وإنما المسؤولية في هذا الواقع ما قرره عليه الصلاة وسلم في حديثه: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذ كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟! قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره." (البخاري).

المسؤولية

وأما المشاركة في الثورات فهي مبنية على تقدير سياسي أو عسكري، وليس الوقوف ضدها أو السير معها خلاف ديني يحتمل إثم المخالف، بل اجتهاد دنيوي يحتمل خطأه. ومن المهم تفكيك المواقف، فيمكن أن يعارض الثورة من يقف ضد الظالم أو يؤيدها من يقف معه، ويمكن أن ينصر المظلوم من يقف ضد الثورة أو يخذله من يقف معها. وهكذا بتجريد الحالة الثورية عن الأحكام يسهل الإنصاف في الحكم على

تجريد الثورة

الممارسات فيها، فيحمِدُ الجميع قولَ الحق وردَ المعتدي وعونَ المحتاج. وإذا كان الوقوف ضد الظالم ديانة، والوقوف مع المظلوم ديانة، فليس الوقوف مع الثورة كذلك. ولا يغيب عنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من امرئ يخذل امرأ مسلما عند موطن تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله عز وجل في موطن يحب فيه نصرته." (رواه أحمد).

ولا يقبل الاستهزاء بالدماء المسفوكة والأجساد المثخنة وبلاء المستضعفين فإنما هذا تكشّفٌ عن بلادة الحس ودناءة النفس ولؤم الطبع وخطل العقل. أتحل لمسلم فرحة أو شماتة لمقتل مظلوم أو من وقف معه! ومهما اختلفنا، أتتساوى في شرعة دماء قتلة ظالمين ودماء مستضعفين ومن خرجوا في نصرتهم! ومن أمراض القلوب وخبث النفوس كذلك تمني هلاك المظلوم وانتصار الظالم، انتصارا لرأي أو شماتة بمخالف. وعجبا لأقوام لا ترتفع أكفهم بالدعاء رحمة بالمستضعفين والمظلومين الساعين لحقوقهم، ولا يلحون على الله في طلب تحقيقهم النصر وأسبابه، ولا يدعون على الظلمة والمستبدين برد كيدهم وعدوانهم وتفريق جمعهم وذهاب قوتهم وملكهم. أيميل هواهم مع الظالم! أم ينكرون أخوة المظلوم وحقه! أم يحجرون واسع رحمة الله وقدرته! عجبا لهم لا تلين قلوبهم لرجال وهبوا أرواحهم لله لتحرير

أمراض القلوب

الأوطان ونصرة الضعفاء والوقوف في وجه الطغاة! أعمتهم المكابرة حتى قست قلوبهم فهي كالحجارة. اللهم طهر قلوبنا واشف صدورنا وأصلح ذات بيننا.

السياسي والمثقف

تلك مسؤولية كل إنسان، أما مسؤولية السياسي فتتمثل في النضال من أجل القضية العادلة لا في إدارة الظلم، وإن تحدي ما يبدو في لحظة تاريخية مستحيلا هو الذي يجعل الممكن واقعا كما حكى ذلك المفكر عزمي بشارة. وتتمثل مسؤولية المثقف في الانحياز للثورة ليتمكن من ترشيدها لا في الاقتصار على تبرير الواقع وظروفه وحكاية أخباره وأخبار ما سبق من ثورات. وذلك برغم ما تسلل للمجتمع السوري أفرادا وجماعات من بعض طبائع الاستبداد؛ فهي مما علينا التعامل معها والعمل في وجودها فلا وجود لمجتمعات أو تجمعات ملائكية خالية من الأمراض أو معصومة عن الأخطاء، لكن من المهم الاعتراف بالقصور بحدوده وبالأخطاء بأسمائها دون الهروب من الحقيقة بالتعليل بنظرية المؤامرة.

ولا تناقض بين هذا الدور العاقل لمن يتحمل مسؤولية الواقع الذي تفرضه الثورة وعنفوان الثورة العاطفي الذي هو لازم فعاليتها في مرحلة إسقاط النظام، فليس من مصلحة في المقايضة بين الفعل الثوري العاطفي والحراك الذي يرفد الثورة بمحتواها الأخلاقي الذي تعبر به بل

المصلحة باستمرار المسارين، والثورة هي السقف العالي والوعاء الحاوي. ومن عنفوان الثورة حدية المنطق إذ الثورة صراع للتغيير الجذري ومن صور هذه الحدية التي تحتاج إلى الترشيد لا التأجيج: المزاج التخويني غير المنضبط تجاه المخالف أيا كان، فلا ينتشل الوطن من الضياع إلا التوافق بين أبنائه والاعتراف المتبادل بحاجة كل منهم للآخر ومساهمة كل منهم بمختلف مسارات وأدوات التغيير.

عنفوان الثورة

ومن أهم ما تصرف فيه جهود الإصلاح الاجتماعي في الثورة السورية: تفكيك بنية ورواسب الاستبداد الاجتماعية وبناء قيم الحرية التي تبرز جمالها. "ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم" كما قال فيلسوف النهضة مالك بن نبي. فلنبحث عن الأفكار الغائبة ولنُحرّرها من جديد؛ لتشرق وتحرق الأصنام.

تحرير الأفكار



تحدي الحرية وتحدي الوجود



تحدي الحرية وتحدي الوجود

نواجه في سورية تحدي الحرية وتحدي الوجود. وإنما تكون مواجهة تحدي الحرية بتعزيز حضورها وفاعليتها وبتفكيك الاستبداد، وتكون مواجهة تحدي الوجود بالتوافق وترتيب فوضى السلطات. وتعزيز حضور الحرية كقيمة إنما يكون بإبراز صورتها التي تعزز الاختيار مع المسؤولية وتقرنها بالجمال، وتعزيز فاعليتها لا يكون إلا بحرية نشاطِ أفرادِ ومؤسساتِ المجتمع المدني، وتفكيك الاستبداد لا يكون إلا بإسقاط فكرة الهيمنة والسلطوية وعلاج رواسبهما الاجتماعية والتصدي لكل أشكال الاستفراد والإقصاء والعصبية. وترتيب فوضى السلطات لا يكون إلا بالإيمان بضرورة التوافق على تكامل الأدوار مع التنوع وإدارته بآلية سلمية يتفق عليها. ومعنى أن تكون سورية أمام تحدي الحرية وتحدي الوجود، أنها بحاجة الفكر بقدر حاجتها للسلاح.

مواجهة التحدي

الحرية نقيض الفوضى، هي المقرونة بالقوانين التي لا تقيدها بل تبرز أفعالها في صورتها التي تعزز الاختيار مع المسؤولية. ولا يوجد شعور إنساني يوافق الشعور بالجمال كما يوافقه الشعور بالانطلاق والاسترسال واطراد الفكر والخاطر والإحساس، وهكذا لا يكون الجمال أبدا في معناه بعيدا عن الحرية، كما قرره الأديب عباس محمود العقاد.

وإنما مثل الحرية مع القوانين هو مثل المعاني مع أوزان الشعر وقوافيه، فتعزّزها مهارة الشاعر في استخدام الكلمات على بحور الشعر، كما يُعزز الاختيارُ مع المسؤولية قيمةَ الحريةِ. فلن نصل للحرية بإسقاط المستبدين أو بتحرير الأسرى وعودة المبعدين ولا حتى بمجرد إطلاق حرية الفكر والتعبير، بل بالعيش بطريقة تعلي قيمتها وتبرز الجمال في ممارستها وحق الآخرين بها. وإلا يكن هذا، سيبحث الناس عن مستبد آخر يلجؤون إليه أو يصنعونه ليستعبدهم ويدير شؤونهم حسب أطماعه وأهوائه.

نقيض الفوضى

ولا يمكن تحصيل الحرية بسؤالها من المستبد، لأنه أكثر من يدرك أنها السم الهاري لأحشائه والمعول الهادم لأركانه والدواء الشافي لشعبه. وذلك لأن الظالم لا يعتدّ إلا بالقوة، فهي أداته في حفظ ملكه وإدارة مملكته. ولا يؤمّن مصدر القوة للظالم إلا حرص المظلومين على سلامة آحادهم، فيكون خنوعهم الذي يتزود منه الظالم هو المخوِّل له باستخدام القوة معهم. فلابد من اقناعهم بانتزاع حقوقهم. ويتطلب انتزاع حق الشعب في الحرية فعلا عمليا سياسيا كان أو ثوريًا لا يطرح فيه خيار مقايضة الحرية بشيء من الأمان والاستقرار إذ لا يتحصل للشعب أيٌّ من الحرية أو الأمان والاستقرار بالمقايضة؛ فإن ما يعنيه الظالم بتأمين الناس على أنفسهم أمانٌ مؤقت كتأمين الأنعام في الحظائر للتباهي بها

مقايضة الحرية

وللاستفادة من صوفها وحليبها والاقتيات عليها واحدة تلو الأخرى، وإن ما يعنيه بالاستقرار استقرارُ ملكه وسطوته عليهم.

ولاختلاف السياق التاريخي علينا أن نستبدل الفكرة المركزية في الفكر السياسي في ثقافتنا، الفكرة التي تسيطر عليه وتنظم حولها أدبياته، فكرة الطاعة. حيث كانت الطاعة هي الإجابة على إشكالية المجتمع في كيفية تجاوز الفوضى والتشرذم وعدم الانصياع لقيادة. بينما على الضفة الأخرى في أوروبا، كانت الحرية هي الإجابة على إشكالية المجتمع في كيفية تجاوز الاستبداد الاقطاعي والملكي. أما الآن في بلادنا العربية وإشكاليتنا في كيفية تجاوز الاستبداد وما تسلل من طباعه وأمراضه للمجتمع فليس أصدق من الحرية إجابة. ولكن "ليس لنظام الحرية أمل في الحياة مع النظام الاجتماعي-السياسي الذي يظهر العجز عن تأمين الحد الحيوي من الحاجات المادية والمعنوية لشعبه." (المحنة العربية، برهان غليون). ولابد لتأمين ذلك من مواجهة واجتياز تحدي الوجود لضمان حياة نظام الحرية.

مركزية الحرية

ولابد لمواجهة تحدي الوجود من راية التوافق التي كتب عليها حرية الانتماء وضرورة الالتقاء. ويمكن بمراجعة الحرب البوسنية في بداية التسعينيات والتي قامت بين أعراق الصرب والكروات والبوشناق أخذ بعض العبرة بأنه لن يكون لتزايد حدة الصراع تمكين طرف من استئصال

طاولة المفاوضات

الآخر بل هناك مسار حتمي آخر. فقد قامت الحرب وتشكلت جيوش عرقية طائفية وقوات لكل من الأطراف الثلاثة، وتسببت الحرب بتهجير نحو مليونين ومائتي ألف بوسني من مختلف الأعراق، وقتل أكثر من مائتي ألف مسلم، وفي المقابل سيطرَ الصربُ على نحو 70% من الأراضي. وكانت أبرز محطتين في هذا المسار: عام 1994 حين وُقّعت اتفاقيات واشنطن التي أدت إلى إنشاء اتحاد البوسنة والهرسك المشترك بين مسلمي الكروات والبوشناق، ونهاية العام 1995 حين وُقّعت اتفاقية دايتون بين رؤساء الأعراق الثلاثة لوقف الحرب والبدء بإنشاء الهيكل الأساسي للدولة الحالية. وكانت اتفاقية دايتون بعد الحملة الجوية للناتو ضد صرب البوسنة في مساندة الهجوم البري لقوات التحالف الكرواتي البوشناقي على إثر مجزرة سربرنيتشا. فلم يكن لهذه الحرب إلا أن تنتهي إلى طاولة المفاوضات وتوقيع الاتفاقيات مع ما كان من ضرورة الدخول في حلف دولي لإخضاع الطرف الأقوى بالقوة للمفاوضات.

إرادة التوافق

وباعتبار التجربة السابقة وغيرها، تحتاج سورية في مواجهة تحدي الوجود وترتيب فوضى السلطات من مسلحي المعارضة كافة إلى استئصال فكرة الاستقواء بالسلاح على بعضهم والقناعة بتكامل الأدوار والتوافق على آلية سلمية لتوزيع الأدوار وتداول السلطات وحل النزاعات، آلية تخرج من رحم التوافق بين الأطراف، وليست بتلك التي تفرض

للتوافق من طرف على البقية، آلية تُشحذ لحمايتها الإمكانيات العسكرية وتُسخّر في صناعة اتفاقيات لاتحادات مناطقية بدل أن تُسخّر الإمكانيات العسكرية في خدمة العصبيات وصناعة المستبدين وتوسيع مناطق نفوذ وسيطرة كل على حدة.

ولا بد للسوريين من منح الثقة لنخب سياسية واعية ممن أعلنت اصطفافها مع الثورة كما منحت الثقة لمسلحين عسكريين ومدنيين رفعوا راية الثورة وذلك لأمرين: لأنه لا يمكن لطرف إلغاء الآخر، ولأنه لا نهاية للصراع إلا لمسار سياسي يجمع ولا يفرق. بقراءة مسار حرب الثلاثين عامًا بين الكاثوليك والبروتستانت في القرن السابع عشر في أوروبا، والتي خفضت السكان في ألمانيا 30% أي قتلت 6.5 مليون إنسان ودمرت ألفي قلعة و18 ألف قرية و1500 مدينة أي ثلث المدن، نجد أن الصراع الطائفي في أوروبا تحول من ديني إلى سياسي لتوسيع النفوذ والسيطرة. ونأخذ العبرة الأخرى بتتبع تاريخ الجدران التي أُنشئت للفصل بين الوحدويين البروتستانت والإيرلنديين الكاثوليك في 1969 وسميت جدران السلام وبقيت لأربعة عقود تزايدت فيها حتى بلغت 48 جدارا مجموع امتدادها مسافة 34 كلم. آل الأمر في 2008 لظهور النقاشات حول إزالتها وتبعها العمل على تطوير الاستراتيجيات لهذا الغرض ومن ثم تطلبت الجهود برامج تمويل لدعم المجتمعات المحلية

المسار السياسي

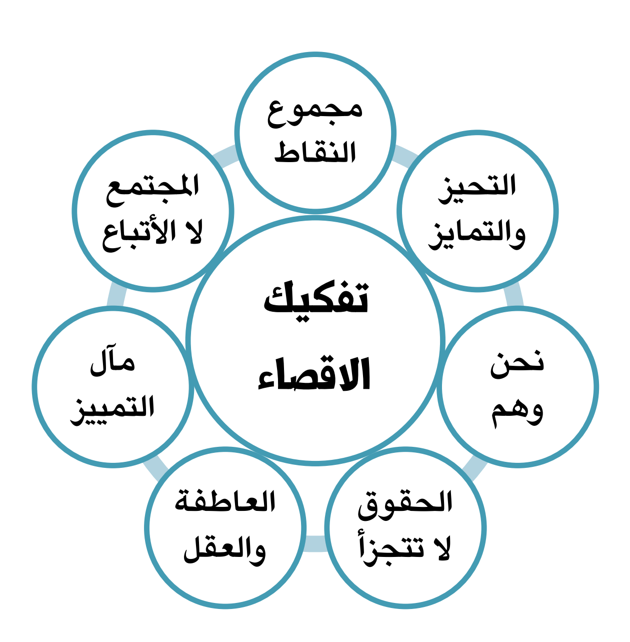
للعمل على ذلك لينتهي المطاف في العام 2013 بالالتزام باتفاقية مشتركة للعمل على اتمام إزالتها كلها بحلول العام 2023.

وهكذا بقراءة المسار التاريخي لتجارب الشعوب نستخلص من الوعي ما يحملنا مسؤولية العمل على إحسان المشاركة في مسار ثورة الحرية والكرامة حفظا لمستقبل سورية وعملا في بنائه، وذلك بترشيد ما أمكن من اتجاهاته وملئ فجوات الوعي في تقلّب أحداثه. وعلى السياسيين والمسلحين واجب ومسؤولية إدراك أنهما جناحا الشعب السوري، كما على الشعب السوري واجب ومسؤولية إدراك أنه مصدر قوتهما وارتكاز مفصليهما. فلن تجدي حركة الجناحين إذا لم يتصلا مع الجسد، ولن يتحركا إلا بقدر ما يمدهما به الجسد من قوة، ولن يقلع الجسد أو يلزم المسار إلا باتساق حركتيهما.

جناحي الشعب



الحراك الثوري والفعل السياسي



الحراك الثوري والفعل السياسي

يتلاوم أحرار سورية متنازعين أحقية تمثيل الثورة بين ما يمكن أن يسمى بالتشكيلات الميدانية وما يمكن أن يسمى بالهيئات السياسية وبين بعضها البعض وعلى اختلاف تنوعها، وكل يعتد بسعيه لتمثُّل مبادئها وتحقيق أهدافها وحفظ حقّ شهدائها. وبين تارة وأخرى تغلب واحدة أخرى في كسبها التعاطف الشعبي بينما تغلب أخرى في كسبها التعاطف النخبوي؛ وترى الأولى نفسَها أقرب لادعاء الوصاية على تضحيات الثوار وترى الثانية نفسها أوعى في السعي لتحقيق أهدافهم. ويقع التنازع في تمثيل مبادئ الثورة في حين أنها صورة لا تكتمل إلا باجتماع كلِّ أجزائها كل جزء في موقعه، وبرغم هذا تتنازع التشكيلات والهيئات بين بعضها استحقاقات تمثيل الثورة بحجم تضحياتها ونوعية إنجازاتها وعددها. وحقيقة الأمر أن انتصار الثورة ليس بكثرة التضحيات ولا بكسب معركة أو إتمام عملية بل بمجموع النقاط التي يحرزها كل أحرار الوطن في مسار الثورة على مختلف أصعدتها.

مجموع النقاط

ولو تتبعنا سلوك التنازع هذا على الأحقية لوجدناه وأشباهه ينسحب معنا على كل المستويات وفي كل المجموعات؛ فتراه بين الداخل والخارج، وبين المدينة الريف، وبين المسلح والإغاثي والطبي والإعلامي، وبين المنشق

والمدني، وبين الحارة وجارتها، وبين الكتيبة وأختها، وبين.. وبين.. وبينما نغرق في هذا السجال وغيره، ننسى أننا نصنع من أنفسنا مستبدين إنما يأتي مع سعيهم لإسقاط الطاغية إحلالُ غيره من أمثاله. وذلك لأن تلك الممارسات والمنازعة إنما هي أعراض بعض ما تسلسل للمجتمع من داء الاستبداد، وأصله التحيز والتمايز الذي يجعل من نفس المجموعة "نحنُ وهُم"، فليست "نحنُ" هنا الثوار وأنصارهم وليست "هُم" الطاغية وأعوانه، وإنما هي "نحنُ وهُم" في داخل الصف المنحاز للثورة والمتشارك في الوقوف ضد الطاغية في التصدي لممارساته. ويؤسس لهذه الصناعة ويحميها القرار السلبي بعدم التصدي لممارسات هذا السلوك سواء كانت من "نحنُ" المقصِيَة أو بين "هُم" الجائرة.

التحيز والتمايز

وربما يكون هذا التمايز أصل كل انحراف في الثورة، فبدلًا من توسيع "نحنُ" لتضمَّ كل من شاركنا العناء من ظلم المستبد وكل من لم يكن معه في ظلمه وطغيانه، اتسعت "هُم" لتشمل كل من خالفنا أو اختلف معنا في الأسلوب أو الوسيلة، بل وحتى من لم يكن معنا في نفس المجموعة وإن شاركنا المسار والسعي لتحقيق نفس الأهداف. وفي داخل صفوفنا كان التنابز وكانت "نحنُ": أصحاب الحق وأولياء الدم ويقظى الضمير وحماة المبادئ، وكانت "هُم": المفرطين بتضحيات الثوار والمضيعين لأهداف الثورة والخائنين لمبادئها. تنابذٌ له ما بعده، فـ "نحنُ وهُم" هنا

نحن وهم

تضع الأساس للتمييز ضد الآخر ولإقصائه مع تبرير كل امتياز لـ "نحنُ" وكلّ خذلان لـ "هُم".

وإنما يُتساهل بالتمييز لتناسي حقيقة أن التمييز ضد الآخر وممارسة الاحتكار والاقصاء تجاهه إنما يُشرّع للآخر التمييز المقابل مع كل تغيّر في كفة القوة وسعة النفوذ، ويشيع الظلم المتبادل الذي يخسر معه الجميع. ويكون التمييز أيضا بتجاهل حقيقة أن الحقوق لا تتجزأ ولا يُشرع سلبها وأن استحقاقها لا يتعلق بأداء الواجبات بل منشؤها كرامة الإنسان، وأن ترك الواجبات أو التقصير فيها ينزلُ عقوبةً ولا يسلبُ حقًا فكيف بأداء الواجبات مع اختلاف الاجتهادات أو ترك ما دون هذه الواجبات. ومن هذه الحقوق حقّ كل أبناء هذا الوطن في الانتماء إليه وحرية الرأي والتعبير، فلا يحق لكائن من كان أن يجعل نفسه أحق أو أولى بالوطن من غيره لنوع تضحية أو حجمها أو غير ذلك إذ التضحية نسبية، ولا أن يَبخس حق الآخرين بهذا الوطن بدعوى تقصيرهم بواجباته إذ الواجبات متعددة واجتهادية، كما لا يحق له أن يحجُر على رأي غيره أو ينزّه نفسه عن الانتقاد أو يطلق لسانه في التعدي والإساءة لتوهُّم سبق فضله غرورا أو قلة شأن غيره تكبرا أو غير ذلك.

الحقوق لا تتجزأ

ومما ترمي به الأطراف بعضها عند الوسم بخيانة المبادئ: وجود أجندة تحرف الثورة عن مسارها وتسيرها لمصالح خاصة. وهذا الاتهام يوجه

في لحظة يغيب فيها أن كل تشكيل أو هيئة إنما هو تدخل سياسي في مسار الثورة لأنه عملٌ يغلب فيه العقلُ العاطفةَ، فكل تصنيف فئوي في الحراك الثوري ناتج بالضرورة عن استغلال سياسي للثورة. فالثورة غلبة العاطفة، والحراك الثوري حيث تغلب العاطفةُ العقلَ وينتهي إلى الحراك السياسي عندما يغلب العقلُ العاطفةَ، وبناءً عليه فإن كل تدخل عقلاني في الحراك الثوري فعل سياسي لأنه يسعى لتسخير الحراك لما يظن فيه مصلحة الثورة وتحقيق أهدافها على اختلاف الأفهام؛ اختلافٌ لا يمكن معه التوصل للحسم والقطع برأي دون الآخر على أساس متفق عليه. ويمكن حصر الفعل السياسي في الحراك الثوري في اصطفافين:

العقل والعاطفة

لصالح الثورة عند كل توجيه للحراك،

ولصالح النظام القائم عند كل كبح للحراك؛

إذ كل معارضة له دعم بالضرورة لبقاء النظام القائم. وهكذا ضمن الاصطفاف لصالح الثورة، لا يصح ادعاء تشكيل على آخر اختطافَها.

ويجب استحضار أن السماح لاستمرار التحيز والتمييز إنما ينذر بتطور "هُم" الحالية في مستقبل سورية ليعمّها تخوين متبادل تتبعه ممارسات إقصائية متبادلة هي نفس ممارسات نظام الاستبداد القديم. لكن "هُم" بعد زوال الطاغية أكثر فتكًا بالمجتمع لتعدد جهاتها؛ وذلك لأن

استبداد النظام القديم بطغيانه كان يجعل من "هُم" واحدة مستضعفة ولأن انكسار سطوته أسال القوة بين مختلف التشكيلات والهيئات مما جعل في المجتمع تشتت قوى وتنوعا لا يمكن استقرار المجتمع معه إلا بتوسيع "نحنُ". ومن أشكال ما قد ينتج عن عدم إعادة توجيه البوصلة باتجاه توسيع "نحنُ" سلوكٌ لن يقتصر على بعض أدنى صوره من حرمان المغتربين حقهم في وطنهم وغير ذلك وإنما سيدخل المجتمع مع كل اختلاف لتوازن القوى في دائرة من الضياع يتعاقب فيها المستبدون على كل شبر وفي كل مجال؛ فمتى تمكّنت مجموعة من منطقة أو قطاع ستبرر حرمانها الأخرى من حقوقها في هذا الوطن، وستبرر حيازتها الامتيازات على غيرها من كل من لم يشاركَها رؤيتها وعملها أو يحمدَها على إحسانها لهذا الوطن. وتُختطَفُ بذلك الثورة وكذا يعود الوطن مسلوبًا يتحكم فيه أمراء حرب أو حاكم يستخدم الشعب والوطن لمصالح عصابته. وكل العناء مستحق، فقطع جذع الشجرة يبقي جذورها وتماسك الأرض من حولها لكنه يسمح لها بالنمو من جديد، أما اقتلاعها من جذورها وإن كان يخلخل الأرض من حولها لكنه يضمن عدم عودتها، وهكذا شجرة الاستبداد.

مآل التمييز

وتوسيع ما تضمه "نحنُ" من أبناء الوطن إنما هو منطلق الثورة السياسية الحديثة الذي عرفه د.برهان غليون بأنه "تهديم الألقاب

والكيانات الطبقية الثابتة والموروثة، وتسوية الناس تماما في فرص السعي إلى النفوذ إلى السلطة والثروة والتعليم والمعرفة، مما يشكل أساس مفهومي الحرية والمساواة ومصدر صدقيتهما." ومن منظور آخر، بينما مآل "نحنُ وهُم" المقصية الجائرة السعيُ إلى تقوية الأتباع لكل "نحنُ" الضيقة باعتبارهم الضمانة في مقابل "هُم" المتعددة الواسعة، تسعى "نحنُ" المتنوعة الواسعة إلى تقوية المجتمع باعتباره ضمانة الوطن لتكون شعار العمل الوطني لإطلاق نهضة هذا المجتمع. والتصدي المبكر لما يظهر من أعراض الاستبداد بين ثوار الحرية والكرامة تحت الضغط وفي ظروف الحاجة المتبادلة أدعى وأجدى من التأجيل لما بعد سقوط النظام المستبد؛ لما يتوقع من تفاقم هذه الأعراض وانخفاض الشعور في الحاجة المتبادلة إلى علاجها.

المجتمع لا الأتباع



الواقع بين الثورة والمستبد



الواقع بين الثورة والمستبد

يحسب البعض أن قرار المشاركة في مسار الثورة هيّنا يسهل على الجميع اتخاذه، وكأنهم يظنونها نوع رفاهية ومن غير تضحيات كالمعارضة في الرخاء، وحقيقة الثورة تفرض واقعها كساحة للنضال حتى فناء دولة الاستبداد لتتيح بهذا النضال للمجتمع فرصة بناء الأمل المنشود. فالسعي في إصلاح دولة الاستبداد حال استقرارها بالمعارضة السياسية من غير نضال وتضحيات وهم، وإنما يكون بتقويضها من داخلها، أما حال انهيارها بعد تفجر الثورة فمن مسار الثورة إلى حين استسلام هذه الدولة للزوال.

ساحة نضال

فما أشبه الثورة بسيل جارف، يغامر من يركبه، ويسلم من يلحق به، ويتحطم من يصده، وينتفع وينفع غيره من يوجهه. وكما قال أحد رواد الحركة الإصلاحية عبد الرحمن الكواكبي "فناء دولة الاستبداد لا يصيب المستبدين وحدهم بل يشمل الدمار الأرض والناس والديار؛ لأن دولة الاستبداد في مرحلها الأخيرة تضرب ضرب عشواء كثور هائج أو مثل فيل في مصنع فخار، وتحطم نفسها وبلدها وأهلها قبل أن تستسلم للزوال، وكأنما يستحق على الناس أن يدفعوا في النهاية ثمن سكوتهم الطويل على الظلم وقبولهم القهر والذل والاستعباد وعدم تأملهم في معنى الآية

الكريمة: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب}. (الأنفال، 25)" وكأن السكوت على الظلم والركون إلى الظالمين أوجب على أمتنا جنابة لا تطهر حتى تغتسل بالدماء لترفع حدث العبودية للطغاة.

صعوبة الإقدام

وفوق وعورة مسار الثورة في الوصول لنتيجتها الحتمية في زوال النظام القديم، يزيد صعوبة اختيار المصلحين من أرباب العقول السيرَ فيه للإسهام في ترشيدها ورفدها بالمحتوى الأخلاقي الذي يقاس به نجاحها، أن الاستبداد الذي جرى على الشعب خلق واقعًا فشى فيه فساد الطباع ومعاني الإنسانية بل وكسلت فيه النفوس عن اكتساب الفضائل كما قرره ابن خلدون استقراءً في كل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف. حتى إنك ترى بعض العوام ممن سطا بهم القهر، يُكبرون ظلمَ المستبد لأنه دليلُ شدّة قوته ويَحمدون تأليبَه بينهم لأنه دليلُ خبث مكره. وغير ذلك مما يزيد صعوبة الاختيار، عدم إمكانية اختصار مرحلة اكتساب المجتمعِ الوعيَ باتجاه التحولات ومؤشراتها، ففي الواقع لابد للمجتمع أن يكتسب الوعي من مخاض التجربة لا من تنظير المفكرين وإن ساهموا في تعزيز هذا الوعي. ويضاف إلى ما سبق، تعدد الأفهام الشرعية في تقييد وتأويل العمل بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انصر أخاك ظالما أو مظلومًا."

وهكذا يجعل الواقعُ الجديد المجتمعَ السوري بين الثورة والمستبد في اتجاهين متضادين فيهما اصطفافات عديدة، يجب أن ندرك حقيقة وجودها بيننا لنفهم سلوكها ونحسن التعاطي معها ونستشرف مستقبل توجهاتها. فقد جعلت الثورة فئات المجتمع بين قرارين: إيجابي وسلبي، إيجابي بالتدخل في مسار الثورة وسلبي بالانسحاب والعزلة، وفي الإيجابي اتجاهين متضادين؛ فإما أن تكون في اتجاه تدعيم مسار الثورة لإسقاط النظام القائم وإما أن تكون في اتجاه تدعيم مقاومة النظام القائم لإعادة الواقع القديم. وبتعداد الاصطفافات داخل القرار الإيجابي بالتدخل في مسار الثورة بداية من كفة الثورة يمكن أن نستقرئ التالي:

اصطفافات المجتمع

- مؤيد للثورة والثوار بشكل مطلق
- مؤيد للثورة والثوار مع انتقاد الأخطاء
- مؤيد لفصيل معين في الثورة بغض النظر عن الثورة
- معارض للنظام لكن ليس مع الثورة
- معارض للظلم وأخطاء النظام وليس مع الثورة
- معارض للطرفين النظام والثوار وجوهر تفسيره للأحداث اعتبار ظلم الحكام وإرادة الشعوب وتطلعاتها
- غير مبالي لا بالنظام ولا بالثوار ويقع عنده لسان الميزان

- معارض للطرفين النظام والثوار وجوهر تفسيره للأحداث تآمر عملاء الداخل والقوى الخارجية
- مؤيد لقيادات معينة في النظام بعض النظر عن النظام
- مؤيد للنظام ورجالاته مع انتقاد الأخطاء
- مؤيد للنظام ورجالاته بشكل مطلق

وبهذا الاستقراء تظهر كفتان كفة القوى التي يمكن أن تكون في مسار السعي للمستقبل وافتتاح العصر الجديد في مقابل كفة القوى التي ستكون ضمن قوى الثورة المضادة ومقاومة العصر الجديد. ولا أدل على ما أفسده الاستبدادُ في المجتمع من أن يُختلف في جهاد الظالمين وقد تمايزت فيه الرايات متقابلات، الحرية مقابل الاستبداد، والعدل والمساواة مقابل الظلم، والتوحيد للخالق مقابل العبودية للمخلوق. وعجبا لأمة يختلف فيها في حق الإنسان بالعدل والحرية والكفاح لنيلهما أكثر من اختلافها في تبرير الظلم وحكم الظالمين أو السكوت عنه.

ولا تصح معظم ادعاءات عدم الانحياز أو عدم الاصطفاف، ومن كواشف بطلانها غلبة الاشتغال في نقد وتسفيه طرف أو غلبة الحزن والأسى على ضحاياه، أو غلبة التبرير لسلوكه وأخطائه، وذلك أيضا بعض سلوك المستبد في أحادية النظر وعدم الموضوعية من تركيز النقد لمساحة محددة

وباء الاستبداد

أو غض الطرف عن طرف دون الآخر. وأيًا كان الاصطفاف الذي يختاره المرء لنفسه، لا يصح ادعاء احتكار الفهم والوصاية على عقول الآخرين إذ إنها سنة فرعون في قوله (ما أريكم إلا ما أرى) وإنما هي بعض ما تقمّصه الشعب من منطق المستبد، ومن احتكار الفهم وادعاء الوصاية إرادة إلزام المخالف بآراء غيره أو بإعمال قواعد غيره وهي اجتهادية والمختلفون غير متفقين لا في تصور الواقع والأحداث ولا في تحقيق المناط وربما لا في تخريجه وتنقيحه.

لوازم النصيحة

كما لا يصح تبرير إرادةِ وسعيِ طرف لإلزام آخر برأي نفسه بادعاء إرادة الخير والنصيحة، إذ كل مطالبٌ باجتهاده والمواقف كاشفة ولازم النصيحة تحرّي دواعي قبولها لا التذاكي على المنصوح. والشفقة أمارة الصدق ما اجتنبت المنّة فيها، ولازم الشفقة ظهور نصرة الناصح للمظلوم واعترافه بحقه وانكاره على ظالمه لا التذرّع لترك ذلك بمداراة سخط الظالم أو عدم المتاجرة بدماء الضحايا؛ فأصل طغيان المستبد لحماية سطوته والثورة وحدها صناعته وذريعته؛ يُطلقها بمجموع المظالم الاجتماعية التي يوقعها على الشعب ويتذرع بها لتبرير سفك الدماء ودمار الديار.

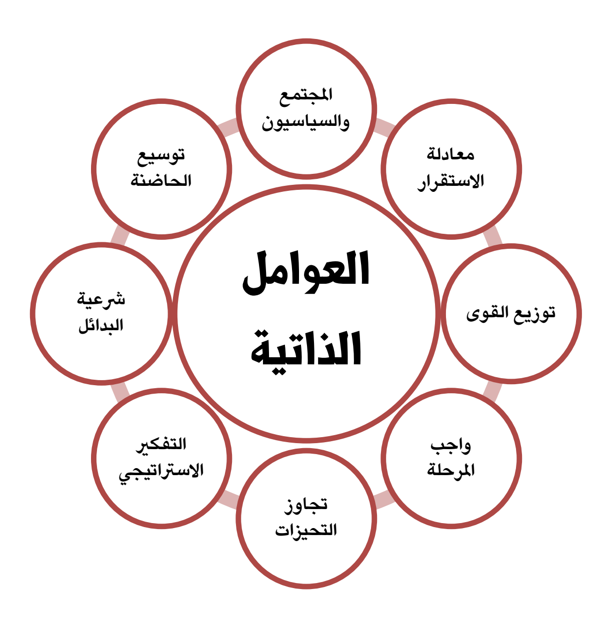
وليس الناصح بالشامت أو المتعالي، وإنما هو من يتحرى من الطرق أفضلها لتعريف الجاهل، وألطفها لتنبيه الغافل، وأقربها لقبول المعرض.

وكم يهرب البعض من عجزه واحباطه لانتقاد سلوك الشعب وقادته، لأنه يصل بذلك لزيف من طمأنة نفسه وتسكين ضميره بتبرئة شخصه، وإنما المفترض منا الاعتراف بالقصور ومتابعة البحث في سبيل تجاوز التحديات بالتعاون والتعاضد بين بعضنا. وكما تكشِف المواقف ادعاءات النصيحة فإنها تميز ما علته التهرب من المسؤولية والتبعات مما علته القناعة والإيمان، فلا قيمة مثلا لادعاء رأيٍ غير ما يراه الآخرون من غير عمل وتقديم غير ما يعملون ويأتون. ولابد دائما من مراجعة وتصحيح النية والقصد وسلامة الصدر كما لابد من مراقبة انفعالات العواطف وزلات اللسان وشوارد الأفعال. وكم هو مثير للشفقة: من يحرف المسميات انتصارا لموقفه، ويغض طرفه تخديرا لمشاعره، ويسمع طرفا تسكينا لضميره.

صدق الناصح



تماسك وحدتنا وسعة تحالفاتنا



تماسك وحدتنا وسعة تحالفاتنا

في العلاقات الدولية، لا تُحدد مكانتنا ومساحة حركتنا واستقلالية إرادتنا بشرعية مطالبنا أو بقوة إيماننا أو بحسن منطقنا أو بعلو صوتنا. في العلاقات الدولية، تُعرف مكانتنا بموقعنا الجغرافي السياسي، ومساحة حركتنا باتساع تحالفاتنا، واستقلالية إرادتنا بتماسك وحدتنا. ولا مساحة للحركة الدبلوماسية - وهي وسيلة إجراء المفاوضات بين الأمم - من غير تحالفات مع قوى محلية وإقليمية وعالمية. ولا صناعة للإرادة السياسية من غير قيادة تثق في التفافنا حولها وفي قدرتها على إثبات التزامنا بها، وإلا كانت الإرادة السياسية تابعة للتحالفات لا يُلام عليها السياسيون إلا بقدر ما يُلام عليها المجتمع الذي لم يتوافق على قيادة سياسية تُفوّض للتفاوض لتحقيق مصالحه. وإن كان موقع مجتمعنا الجيوسياسي ليس مما يخضع لإرادتنا أو يدخل في مساحة تأثيرنا، فإن سعة تحالفاتنا ومرونتها وتماسك وحدتنا وقوة قياداتنا مما لا يخضع إلا لإيماننا وإرادتنا وفاعلية ما ينطبع منهما في أفعالنا.

المجتمع والسياسيون

وبفهم بعض حسابات القوى العالمية ندرك عدم تقاطع مصالحها بما يخدم حسم الصراع في أرضنا لصالح الشعب وندرك أن مُبتدأ طريق الخلاص ونهايته إنما يكون بما نجنيه بأيدينا ونكسبه بفعل إرادتنا.

ومن أهم معادلات استقرار منطقتنا ما هو مستفاد من المفكر التركي أ.د. أحمد داود أوغلو في كتابه (العمق الاستراتيجي). حيث يتنازع العالم المعاصر قطبين وتتوزع القوى الإقليمية والمحلية والدول الصغيرة حول فلكيهما في توازنات دولية، نجد أن للشرق الأوسط ثلاثة مثلثات تصنع توازنات المنطقة. أضلاع هذه المثلثات من الأكبر للأصغر:

معادلة الاستقرار

إيران، تركيا، مصر، ثم

العراق، سورية، السعودية، ثم

لبنان، فلسطين، الأردن.

ومعادلة الاستقرار في هذه المثلثات مرهونة بتوزع القطبين لأضلاعها بمعادلة 2+1 من الخارجي إلى 1+2 من الداخلي.

ولتطبيق معادلة الاستقرار السابقة عمليا نجد أن معادلة روسيا للحفاظ على موقع استراتيجي يرضيها في الشرق الوسط: إيران (من المثلث الخارجي) + العراق وسورية (من المثلث الداخلي) وأن معادلة الولايات المتحدة: تركيا ومصر (من المثلث الخارجي) + السعودية (من المثلث الداخلي). ولذا لا يتصور استقرار المنطقة بتخلي روسيا عن سورية إلا بتخلي الولايات المتحدة عن مصر، وفي نفس الوقت لا يتصور تخلي الولايات المتحدة عن مصر بموقعها الاستراتيجي الأقوى في المثلث

توزيع القوى

الخارجي لأجل سورية في المثلث الداخلي؛ مما يفسر تحمل الولايات المتحدة تكلفة وحرج دعم سلطة الانقلاب في مصر. وهكذا تبدو لروسيا معادلة: إيران ومصر (من المثلث الخارجي) + العراق (من المثلث الداخلي) غير واقعية؛ لضعف فرصتها بمصر في هذه المرحلة وهو ما يفسر تصلب روسيا في موقفهم الداعم لسلطة الأسد في سورية.

ولذا نشهد تفرّج القوى العالمية على استنزاف الأطراف لبعضها وللقوى الإقليمية والمحلية المتحالفة معها بانتظار الوصول لحالة تجبر الجميع على التفاوض والتسوية إذ لا وجودَ لتصورٍ (سيناريو) متاحٍ رسمه بإرادة مستقلة للقوى الثورية في الشعب السوري، ولابد من الواقعية وتعزيز تحالفاتنا مع القوى المحلية والإقليمية لاختصار شيء من طول المسار وتكلفته. وهذا ما يجعل من قوة إرادتنا وتماسك وحدتنا مع سعة تحالفاتنا الطريقَ الوحيدَ لتحرّرنا في سورية من طغيان نظام وعصابات الأسد. وأما على المدى الاستراتيجي، فإن استقلال الإرادة السياسية لمنطقة الشرق الأوسط مرهون بتوازن علاقة تعاونٍ بناءةٍ بين أضلاع المثلث الخارجي (إيران وتركيا ومصر) تنتظم على أساسها أضلاع المثلث الداخلي (العراق وسورية والسعودية).

إن كان وَسِعنا في مراحل الثورة السورية الأولى اختيار التضحية من كل فرد بنفسه بخروجه في المظاهرات للصدع بكلمة الحق في وجه الحاكم

الظالم الجائر وعصاباته حيث من القواعد الفقهية أن أداء الواجب لا يتقيد بوصف السلامة وفعل المباح يتقيد به، وكلمة الحق هذه هي الواردة في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبها بسيد الشهداء. وإن كان صح لكل فرد أو جماعة الدفاع عن النفس بالسلاح ورد عدوان الصائل ففي الحديث: من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد. فليس يصح العمل متفرقين لجهاد الظالم وإسقاطه بالسلاح والحقُّ سبحانه وتعالى يقول: {إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص} (الصف، 4).

واجب المرحلة

وإن كان وقع استنفار العصبيات للدفاع عن الأهل والأرض في مناطق محددة، فليس للعصبيات موقع في الجهاد لإسقاط الظالم ودك معاقله وقطع طرق إمداده. فالوطن حق الجميع ولابد أن تفخر كل منطقة بتضحية أبنائها في مختلف مناطق سورية في سبيل تحريره، ولابد أن يفخر أهل كل منطقة باحتضان أبناء مختلف مناطق سورية وتضحياتهم على أرضها، ولابد من تجاوزِ التشكيلات المناطقية والعصبية والالتحاقِ بتشكيلات عابرة للمناطق والفئات، تشكيلات فاعلة تعزز بتنوعها انتماء أفرادها الوطني وشعورهم بوحدة الهدف والأرض والمصير، وتعكس كل ذلك واقعا فيما تقدمه من تضحيات وتحققه من إنجازات على كامل الأرض السورية. ويسهم في ذلك، إرفاد المحتوى

تجاوز التحيزات

القيمي والثقافي لأغاني الثورة وأناشيدها بما يخدم وحدة الصفوف وألفة القلوب ويعبر عن جمال صورتها وأثر حضورها وتهديدات غيابها.

ومع الوعي بما تشير إليه معطيات الدراسات الاستراتيجية للصراع في سورية من أنه سيمتد لعقد من الزمان، وبالنظر إلى قصور قدرات وممكنات الثورة والمعارضة المرحلية عن انتزاع قلب سورية (دمشق) من سطوة وتحكم سلطة الأسد وعصاباته، وباستصحاب ما هو مقرر من وحدة الهدف والأرض والمصير، لابد من النظر في البدائل الاستراتيجية للمرحلة ومنها: إما التركيز على خلق وتدعيم قلب جديد لسورية بما يعنيه هذا من حشد وتركيز للقدرات والكفاءات والطاقات والتحالفات أو التحول إلى تقليل مساحة سيطرة المعارضة على المناطق السكنية وتوزيع مراكز قيادة العمليات والتركيز على سعة انتشار قوات قطع طرق الإمداد والاتصال.

التفكير الاستراتيجي

وليس من ضير في اختيار أي البديلين إذا صدر عن الرأي والمشورة بخصوص مواجهة الثوار للنظام الغاشم داخل المدن أو خارجها. فقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم يومي أحد والخندق، واختاروا الخروج في أحد برغم تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصار للبقاء في المدينة، واختاروا البقاء يوم الأحزاب وحفر الخندق حول المدينة. ولم يكن ليقع إثم من قتله المشركون يوم أحد ممن

شرعية البدائل

اصطفاهم الله شهداء على من فضّل الخروج وأراده وهم من وافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على شوراهم تالي الأمر، ولا أن يقع إثم من احتمل استشهاده من أهل المدينة بعدوان الأحزاب يوم الخندق على من فضّل البقاء وأشار بتحصّن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيها.

وفي كلا الخيارين لابد من تهيئة تشكيلات الثورة بكل أنواعها وأطيافها لآليات وأساليب العمل في سبيل إسقاط النظام وفق استراتيجية محددة وفي سبيل الحفاظ على الحاضنة الشعبية وتوسيعها تحت مناطق نفوذ قوات الهيئات والتشكيلات الثورية وخارج مناطق سيطرتها وانتشارها. ومما يتطلّبه الحفاظ على الحاضنة الشعبية وتوسيعها، أن نقدّر كل جهد وعمل مهما كان نوعه أو قلّ أثره ومهما اختلفنا معه مادام ينطلق من وحدة هدفنا ومصيرنا ويؤكد على وحدة أرضنا فلا نحقرن من المعروف شيئا مما يعزز الصلة ويشيع الألفة فيما بيننا وبين الحاضنة الشعبية. وإلى جانب تطور خبرات وإمكانيات وآليات هيئات وتشكيلات الثورة، لن يكون نجاح الثورة إلا بقدر ما تحافظ عليه وتكسبه من الحاضنة الشعبية إلى جوارها وبقدر ما تنحسر حاضنة النظام الشعبية عن تحمّل تكلفة تأييده.

توسيع الحاضنة


مستقبل الدولة وإشكالية التصور


توحيد الرؤية
الوعي والأداء
مستويات الدولة
الأكثر فاعلية
القوى المنظمة
التقوية لا الهيمنة
مقاربة تاريخية
الأمن القومي
الآلية السلمية
ضمان الاستقرار
الحاكم والجيش
القوة الانتخابية
آليات التطبيق

مستقبل الدولة وإشكالية التصور

الاشتباك الحاصل في اختلاف التصورات عن مستقبل الدولة من أسباب التمايز بين مختلف التشكيلات المعارضة والثورية. وهذا الاختلاف يصنع جزءًا من مجهول يُتخوّف منه في مسار صناعة مستقبل الدولة، وعند تطبيق آليات التعاون بين مختلف التشكيلات في سبيل هذا المستقبل. ويبرّر هذا التخوف بكونه في بلدان لم تكن فرصة المساهمة في صناعة المستقبل متاحة للشعوب لعقود، حتى جاء الربيع العربي ليخلق هذه الفرصة التي يتوقف نجاحها على وعي الشعوب وأداء ممثليها.

الوعي والأداء

لفهم الإشكالية في تصور الدولة يمكن الاستفادة من كتاب (المحنة العربية: الدولة ضد الأمة) للدكتور برهان غليون وذلك بالتمييز بين ثلاثة مستويات أساسية في تكوين الدولة: الأول تقني، والثاني سياسي، والثالث عمق أخلاقي.

مستويات الدولة

المستوى الأول: الجهاز المركزي الذي تستخدمه سلطة ما ويمكن أن يكون مستوردا أو محليا، قديما أو حديثا، وهو يتحكم بفاعليتها أيا كانت سياستها وقيمها.

والمستوى الثاني: القوة الاجتماعية السياسية التي تمتلك شرعية التحكم بالجهاز وإدارته وتعتمد على قواعد لممارسة السلطة وتداولها وتعيين حدودها.

والمستوى الثالث: يتعلق بالقيم والغايات الانسانية التي تعطي للسياسة مشروعيتها ومبرر وجودها، وهي مرتبطة بالقيم الاجتماعية وتطور المجتمعات.

وهكذا قد تخدم الدولة في المستوى الثاني برنامجا وطنيا أو طائفيا أو نخبويا أو قبليا، وفي الثالث تزداد الدولة رسوخا بقدر تحقيقها لمبدأ إنساني أعلى.

وبإدراك حقيقة المستوى الأول التقني للدولة يكون من مصلحة الشعب - مهما اختلفت مبادئه وقيمه - الاتفاق على السعي لتطبيق أكثر أنماط التنظيم للدولة فاعلية والالتزام بذلك مع مختلف التيارات الفكرية. حيث لا يمكن أن يفسَّر تخوف التيارات السياسية من شكل الدولة في المستوى التقني إلا بضعف تمييز مستويات الدولة أو إرادة جبر الناس لا دعوتهم وتنويرهم وإرادة جبر الناس هي ما قامت ثورة الحرية والكرامة ضده.

الأكثر فاعلية

وأما في المستوى الثاني فالدولة تعبير عن الطريقة التي ينظم فيها المجتمع نفسه، وتجسد وتعكس برامج ومصالح القوى الاجتماعية

القوى المنظمة

المنظمة، ويكون بذلك هذا المستوى السياسي حصيلة التاريخ الاقتصادي/الاجتماعي ويعكس لا محالة أنماط تشكل المجتمع المدني. ولا يمكن أن يخضع المشروع السياسي للدولة في تطوره إلا للقوى المنظمة في قلب المجتمع وما تعبر فيه عن نفسها كقوى سياسية.

وما سبق بعض ما يفسر استفراد الأقلية المنظمة عسكريا في سورية بالأغلبية غير المنظمة، على ما في الأقلية والأكثرية من اختلاف وتنوع.

التقوية لا الهيمنة

ويلزم لصلاح حال القوى المنظمة في المجتمع انتزاع فكرة الهيمنة عليه لتحلَّ محلها فكرة تقويته بالتشارك مع غيرها، وأن تدرك كل من القوى المنظمة في المجتمع أن ضمان مستقبلها يقوم على التوافق في مجتمع قوي وليس على الهيمنة وتسخير المجتمع لقوتها.

ويمكن تصور الفصل بين المستويات الدولة بما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث آمن معه جماعة ولم يبتدع نظام حكم على المستوى التقني ولم يفرض مشروعه السياسي بجاه أو سلاح، بل دعا الناس

مقاربة تاريخية

وعرض نفسه على القبائل حتى بايعه "مجتمع" فأقام فيه مشروعا ارتضوه، وأرسى في الدولة والمجتمع المبادئ والقيم التي أمّنت رسوخ الدولة وتماسكها بعده حتى بدأت تتزعزعُ بتدرجٍ وتضطربُ بقدر ما تفقد من تلك المبادئ والقيم.

وحيث يأتي التأكيد على كون قوة المجتمع هي الضامن لمختلف قوى الأكثرية والأقلية منظمة وغير منظمة، يأتي التأكيد على أن الأكثرية السياسية في أي مجتمع هي صمام الأمن القومي للدولة. ولذا يلزم تمكين تيار أو حزب الأكثرية من استحقاقاته في إدارة الدولة. وبنفس المنطق يكون الشباب هم صمام الأمن القومي لمجتمعاتنا العربية الشابة، ويلزم تمكينهم من مساحة حراكهم للتأثير في تطور المجتمع؛ حيث تعدّ مشاركتهم أساسًا في بناء الاستقرار الاجتماعي مثل ما تعدّ مشاركة تيار أو حزب الأكثرية أساسًا في صياغة التوافق السياسي.

الأمن القومي

وباعتبار المستوى التقني للدولة، الديمقراطية بمختلف أشكالها وأنظمتها آخر ما وصل له تطور العقل البشري في أنظمة إدارة الدول حيث تأتي توصيفا للآلية السلمية التي تتجاوز بها المجتمعات مشكلاتها الأساسية التنموية والوطنية. ولا يضيرها أن كان تطورها كإبداع إنساني في خارج مجتمعاتنا، فقد أدخل عمر رضي الله عنه الدواوين في الدولة، فقال أبو سفيان رضي الله عنه: أديوان مثل دواوين بني الأصفر! فرد عمر: لا بد من هذا. وكذا يسمع صوت النداء للديمقراطية، فيقال: أديمقراطية مثل ديموقراطية الغرب! فيكون الرد: لا بد منها؛ لتكون محل الاتفاق على آلية سلمية لفض النزاعات وإدارة الصراعات وتداول السلطات.

الآلية السلمية

لكن الديمقراطية لا توفر على المجتمعات التضحيات التي لا بد منها لمواجهة تهديدات خطوط الانقسام الطبيعية فيها قوميةً كانت أو قبليةً أو دينيةً أو غيرها. وذلك أن مما يعيق تطور المجتمعات بالآليات الديمقراطية، انتخاب المصوّتين وكيلا عنهم يمثل مصالحهم الفئوية، لا من هو أكثر حكمة ليمثل مجمل مصالح الناس، فيعيد بذلك المجتمع إنتاج تنوعه بصورة فئوية سياسية تتنازع الدولة وتهدد وحدتها واستقرارها. ويجر هذا التنازع الفئوي في النضال من أجل الحقوقِ الأقلياتَ السياسية إلى النزعات الانفصالية، وهو ما يحتم علينا الاختيار بينها وبين الإيمان بالمواطنة المتساوية لضمان وحدة البلاد واستقرارها. وتحقيق الاستقرار هو أوسط شروط استحقاق الدولة بعد ضمان وجودها وقبل صناعة نمائها، وتكون المواطنة بذلك توصيفًا لتوزيع الحقوق والفرص في إطار الدولة ونظامها.

ضمان الاستقرار

ولا بد لمواكبة التطور في الدولة الحديثة في مجتمعاتنا من الانتقال لفضاء جديد من الاجتهاد الفقهي إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، واستصحاب تصور الدولة القديمة على الدولة الحديثة لا يصح. الدولة القديمة لحاكم يملك الأرض والرعية ويمتن عليهم بجوده وكرمه وعطفه وإحسانه، والدولة الحديثة لمواطنين يتساوون في الحقوق ويجتمعون على طاولة مستديرة لا فضل فيها لأحد على آخر وإن اختلفوا

الحاكم والجيش

في العدد والعدّة والواجبات والمسؤوليات. ومما اختلفت فيه الدولة الحديثة عن القديمة ولاء الجيش ووظيفته وهو ما تعلقت به أحكام ذو الشوكة والمتغلب في الفقه الإسلامي، فبينما كان ولاء الجيش في الدولة القديمة للحاكم ووظيفته حماية ملك الحاكم واستقرار سطوته، أصبح ولاء الجيش في الدولة الحديثة للوطن ووظيفته حماية نظام الدولة وحدودها.

القوة الانتخابية

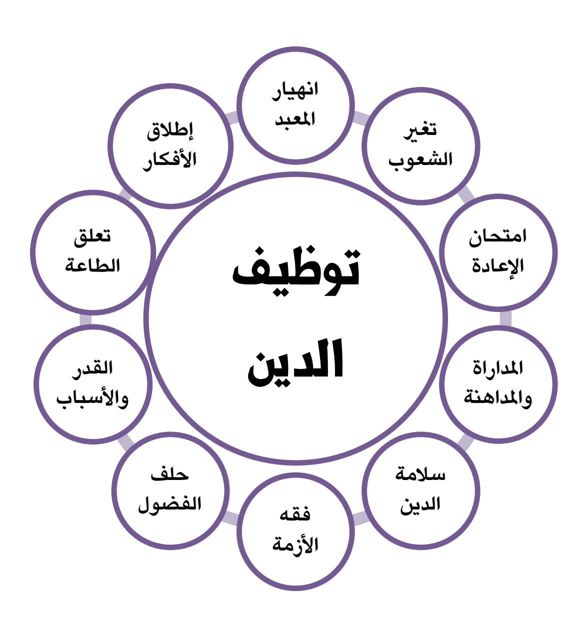
وباختلاف طبيعة الدولتين يختلف معنى ذو الشوكة في كل منهما عن الآخر. كانت الشوكة التي يتعلق بها استقرار الدولة القديمة هي القوة العسكرية التي تخضع الأرض والشعب لحاكم، وحيث اختلفت وظيفة الجيش في الدولة الحديثة كانت في المقابل الشوكة التي يتعلق بها استقرار الدولة الحديثة هي القوة الانتخابية التي يصوت بها المواطنون المتساوون في الحقوق لأحدهم ليحكمهم ويدير شؤونهم بما توافقوا عليه. وباختلاف الشوكة التي يتعلق بها استقرار نظام الحكم من القوة العسكرية إلى القوة الانتخابية، وباختلاف ولاء الجيش ووظيفته من تعلقه بالحاكم لتعلقه بالوطن، يُفتح الباب للاجتهاد في إعادة تعريف ذو الشوكة والمتغلب وتعليق أحكامه بصاحب القوة الانتخابية بدل صاحب القوة العسكرية.

وإن مجالس القضاء المستقلة التي تتوافق عليها الكتائب والفصائل الثورية في مختلف مناطق سورية هي من جنس الآلية السلمية التوافقية لفض النزاعات، وهي نواة لابد من أن تُرعى وتُخدم حتى تعزز حقيقة التوافق عليها وتتطور آلياتها بشكل يؤمن لها النمو والبقاء بفاعلية حيث هي ضمانة تحييد السلاح بيننا، وحتى تصل للتنسيق بين بعضها في مختلف المناطق وللاندماج في تشكيلات هرمية على مستوى المحافظات لتشكيل هيئة سيادية على مستوى الدولة. وربما تكون هذه المجالس بعدها الطرف الضامن بين مختلف الأطراف لرعاية آليات إدارة الصراعات الداخلية وتداول السلطات التي لابد منها؛ حيث فقد المجتمع الثقة بشعارات واسعة رنانة لم يشهدها واقعًا عمليًا، شعارات ليست بذاتها السبب ولا عدم إرادة أصحابها تطبيقها، ولكنه الافتقار إلى التوافق الواسع على إنشاء آليات وإجراءات عملية تفصيلية لذلك.

آليات التطبيق



سلطة القديم ونداءات الماضي



سلطة القديم ونداءات الماضي

الثورة لحظة انفكاك من القديم، وللقديم معبد وكهنة وحراس. وفي لحظة الانفكاك: يختلط في الذهن صوتان، نداء عجوز تتمسك بحياة قديمة، وصرخة مولود يستقبل حياة جديدة. يعاود الكهنة إطلاق وعودهم بإشراقة النور من الداخل، ويتعلق رواد التجديد بالشمس وراء الجدران. يحصل الاشتباك بين الكهنة ورواد التجديد، ومن حولهم بين الحرس وصناع التغيير. تتشقّق جدران المعبد وتنفذ أطياف من نور، تضطرب أبصار الكهنة، وتبرق بالأمل أعين رواد التجديد. تتهالك الجدران، فيهرع الكهنة والحراس لترميمها، ويمسك رواد التجديد وجيل التغيير معاول هدمها. تنهار أساسات المعبد، ويسقط بعضها على رؤوس من فيه، يلتفت الكهنة والحرس يعاودون بناء المعبد ويصنعون التماثيل لمن فقدوا، ويمضي رواد التجديد وصناع التغيير يحدوهم الأمل لما هو خارج المعبد. تختلط الصفوف، يحن قوم للراحة والأمان فيعاودون بناء معابد يبيتون عندها، ويستمتع آخرون بما فتح لهم من آفاق فيمضون في أيام عمل عديدة ورحلات بحث طويلة مع كل إشراقة شمس وومضة نور.

انهيار المعبد

وكما قال أريك هوفر متخصص الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية: "يحسب الناس أن الثورة تأتي بالتغيير، لكن العكس هو الصحيح." نعم، ليس تصدُّع جدران المعبد وتداعي أساساته هو من أخرج رواد التجديد وصناع التغيير، بل لم يكن لهؤلاء أن يخرجوا لولا تغيُّرهم الذي حصل داخل الجدران، ولولا تمسُّك كهنة المعبد بالقديم وطاعة حرسه العمياء لهم وما دار من صراع بينهم وبين رواد التجديد وصناع التغيير. وكذلك شعوب الربيع العربي منحت بسلوكها الثورة طريقا لخلاصها شهادةَ الرسوب لنُخب سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية لم تنتج حلا لعقود من الظلم والاستبداد.

تغير الشعوب

لقد كانت هذه النخب على مدى عقود ماضية وما زال بعضها سدنة المعبد وحرس سلطة القديم، حتى جاءت ثورات الربيع العربي لتكون لحظة الانفكاك، وهذه اللحظة هي أصل كل مكسب حققته الشعوب بعدها. ولذا أعجب من هذه النخب تطالب الشعوب بالعودة لرأيها بعد أن مُنحت شهادة الرسوب على رؤوس الأشهاد. الثورة امتحان الإعادة، إن اجتازته عادت لبعض مكانتها وعادت إليها الشعوب، فلتُعد هذه النخب تقييم موقعها. هذه الشعوب الحرة الثائرة لم تعد تؤمن بما تطفيه هذه النخب من شرعية على أفكار مسكِّنة للنفوس وقاتلة لفاعلية مجتمعاتهم، وبما

امتحان الإعادة

تقدمه من مبررات لاستمرار سوء أوضاعهم، وبما تصنعه من أعذار للتقصير في حفظ حقوقهم وتلبية احتياجاتهم وتحقيق آمالهم.

ومن أكثر حراس القديم حضورا في مجتمعات الربيع العربي، تيارات دينية تقليدية بدأت بمداراة الحاكم اضطرارا لحفظ الجماعة ومساحة عملها، ثم انتقلت لمداهنته فبادرت المستبد فوق ما يضطرُّها إليه حتى لم يُؤثر تغيُّر الواقع في تغيِير موقفهم من المستبد وإن كان في هذا التغيِير لموقفهم حفظ الجزء الأكبر من حاضنتهم الشعبية وموضع دعوتهم، وهذا نفسه التعليل بحفظ مساحة العمل الذي دعاهم لسلوك المداراة بادئ الأمر، حتى كأنها تحفظ مكانتها عند الحاكم لا دعوتها. ثم تحول سلوك المداهنة إلى مبدأ تستدعى لخدمته النصوص حتى وصل أفرادٌ من هذه التيارات لتشريع وتبرير سلوك النظام الجائر تجاه غيرها.

المداراة والمداهنة

هل يستقيم أن تبرر هذه التيارات الدعوية سلوكها المداهن بسعيها الحفاظ على وجودها في مجتمع يخوض معركة الوجود؟ ما السلوك المنتظر من علماء الدين والجماعات الدعوية مع من ظهر ظلمه وجوره على الناس ولم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه بالقول؟ وكيف يَسْلم الدين مع المداهنة بالمساهمة في تثبيت حكم المستبد المتغلب وإعلان تجديد البيعة له؟! وذلك ليس حتى مما هو في نظرية المتغلب في الفقه الإسلامي التي يستدعونها وتقرّ بسلطان المستبد اضطرارا للتعامل مع الواقع ولا

سلامة الدين

تقصد الإسهام في تعزيزه ودوامه. وأين هذا السلوك من حكمة واجتهاد الجويني إمام الحرمين حيث يقول: "وترك الناس سدى ملتطمين لا جامع لهم على الحق والباطل أجدى عليهم من تقريرهم على إتباع من هو عون الظالمين وملاذ الغاشمين." (الغياثي).

ومن نداءات الماضي التي استدعتها هذه الجماعات في شعار جديد "فقه الأزمة"؛ وهو إما أنه فقه تعامل المستبد مع عصيان الشعب وذاك فقه علماء السلاطين، وإما أنه فقه تعامل الشعب مع جور المستبد وهذا إما فقه الخنوع أو فقه الحرية. ولابد من اشتراط الاستقلالية عن الحاكم في فقه تعامل الشعب مع المستبد؛ لأنه بطبيعته يقرّ بظلمه واستبداده، فهو فقه العمل في ظل جوره وطغيانه، ومن أمارات كونه فقه الخنوع أو فقه الحرية رضا المستبد عنه أو سخطه عليه.

فقه الأزمة

ولا يصح أن يُدَّعى فقه الحرية ممن هو في حِلف المستبد أو ظِل رضوانه؛ لأن المستبد لا يقرّ من الفقه إلا ما يخضع به الشعب لسلطانه، وعليه لابد أن يكون ما يُنّظر له من فقه يرضى عنه المستبد هو فقه الاسلام لتدبيره والخضوع لسلطانه والتعلق بأعتابه، بخلاف فقه الحرية الذي لا يكون إلا محل سخطه وعدوانه، والذي لا يكون أصحابه إلا في حِلفٍ مع الشعوب الحرة الثائرة كحِلف الفضول، إذ فيه عهد الله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه، وهو الحِلف الذي قال عنه

حلف الفضول

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أدعى به في الإسلام لأجبت." وجاءت آيات الحجرات مصدّقة لجوهر هذا الحِلف ومشرّعة لجهاد الظالمين بين المسلمين في قوله تعالى: {فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله} (الحجرات، 9). وهي الآية التي قال الإمام النووي في ذكر الفريق الذي ذهب إلى عدم إعمالها: "ولو كان كما قال الأولون –أي الفريق الأول- لظهر الفساد، واستطال أهل البغي والمبطلون." وتعليقه هذا يصدّق ما آلت له حال بلاد المسلمين بعد شيوع رأي الفريق الأول واندثار مذهب السلف في خروجهم على الظالمين وجهادهم للمستبدين.

وكذا استدعت فئة من هذه التيارات الدينية التقليدية، ما هو من مذهب الجبرية في الإيمان بالقدر، فكان مذهبا مثبطا أقعدهم عن العمل وإعداد العدة والأخذ بالأسباب، بينما الإيمان بالقدر في أصله دافع للعمل حامل على خوض المعارك الدامية وركوب الأخطار الدانية، إذ إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها. وآخرون دخلوا في دائرة مغلقة بانحرافهم في ربط الأسباب بمسبباتها في قوله تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} (الشورى، 30)؛ إذ ذهبوا يعلّلون ما وصلت له حال بلاد المسلمين من استفراد الظالمين بها بتقصير المسلمين في واجباتهم وعباداتهم وأحوالهم الخاصة. وكان هذا الفهم مبررا يتعذرون به لانكفائهم على أنفسهم وانشغالهم في إصلاح الأحوال الخاصة دون

القدر والأسباب

العامة. والصواب تعليل استفراد الظالمين ببلاد المسلمين وهو من الأحوال العامة بما كسبت أيدي المسلمين من تقصيرهم في واجباتهم وعباداتهم وأحوالهم العامة، من إعداد للقوة وإنكار على الظلمة وترك جهادهم وقعود عن السعي في تحرير الأوطان وعمارتها.

ويمكن أن نضيف إلى ما سبق من النداءات القديمة، المفارقة فيما اختلفت فيه طبيعة الدولة الحديثة عن القديمة، حيث الحاكم في الدولة القديمة هو القانون ومصدر شرعيته، بينما في الدولة الحديثة فإن الحاكم يستمد شرعيته من الدستور الذي يخضع له الرئيس قبل الشعب؛ إذ الدستور والشعب سبب وجود الحاكم كما الوالد سبب وجود الولد، وكما يكون بذلك فضل الوالد على الولد، يكون بهذا فضل الدستور والشعب على الحاكم. فيكون للدستور والشعب موضع الوصاية على الحاكم ومحاسبته، وبذلك يُقدم مطلبُ برِّ الحاكم للشعب بإكرامه وتُقدم ملامة الحاكم على تقصيره في حق الشعب. وبرغم هذه المفارقة ما يزال البعض يفكر في الفضاء القديم عن وجوب طاعة الحاكم ومحدداتها، بينما الفضاء المفترض لهذا التغير في طبيعة الدولة: انتقال تعلق أحكام الطاعة من الحاكم لتعلقها بالدستور، كما انتقل تعلق الولاء من الحاكم للوطن.

تعلّق الطاعة

فيا أصوات الماضي في كل معبد ووادي، وفروا على أنفسكم. لن يسلّم الشباب ولا المستقبل لرؤى لم تنتج حلا في الماضي أو لم تتمكن من العمل في أرض الواقع. ويا رواد التجديد وصناع التغيير على كل صعيد، أطلقوا تصوراتكم للواقع ورؤاكم للمستقبل. ستشذبها الأحداث وسيحتفى بها في قابل الزمان، فقد سئمت المجتمعات سلطة القديم ونداءات الماضي والأفكار المكرورة.

إطلاق الأفكار



الثورة والفتح المبين



الثورة والفتح المبين

كما كان صلح الحديبية فتح بما فيه للمسلمين من مكاسب صلبة وخسائر هشة، وما فيه للمشركين من مكاسب هشة وخسائر صلبة، كذلك الثورة السورية هي فتح للأحرار. في صلح الحديبية، كسب المسلمين ذمة قانونية بأن لهم عهدا لمن أراد أن يدخل في حلفهم من غير قريش، وهدنة عشر سنين يتفرغون فيها لبناء قدرات المجتمع المسلم، وحريتهم الدينية في مكة بعد عام. في الثورية السورية، كسب الثوار حريتهم وفاعليتهم في بناء الأمل المنشود، والشرعية الدولية والعلاقات والتحالفات المحلية والإقليمية، والتجربة والخبرة الإدارية في مختلف القطاعات وكذا السياسية في العلاقات الدولية، وسيولة القوة.

المكاسب الصلبة

وفي الثورة السورية أيضا، خسر النظام الشرعية الأخلاقية، والعلاقات الخليجية والتركية والغربية، وتركز القوة، وسلاحه الاستراتيجي، وانحسرت موارده المحلية وحاضنته الشعبية. ولم ينجح النظام بتحقيق أيّ مكسب صلب لم يكن له قبل الثورة السورية إلا إذا كان يعدّ من مكاسبه التخلص من العناصر المشكوك في ولائها لرجالات عصابته وفي تضحيتها لاستقرار سطوته داخل أجهزة الدولة التي يحتلّها؛ ففي ذلك

تنقية صفوفه وتعزيز تماسكه، ولكن هذا الانحسار عنه مكسب للثورة يعزز جانبها في ذات الوقت.

وكانت الحرية والفاعلية أول فتح لأحرار الشعب السوري؛ لأنها بعثت فاعلية المجتمع بتحرير حيويته النفسية ليتمكن من إطلاق ممكناته التي تمثلت في تشكيلات وهيئات المجتمع المدني بخصائصها التي هي محل قوتها، فكانت هذه التشكيلات والهيئات ذاتية القيم والأهداف، مستقلة عن السلطة، وغير مرتهنة للأحزاب السياسية، وتعبّر عن مختلف فئات المجتمع واهتماماتها وتسعى تطوّعا في تلبية احتياجاتها وبناء قدراتها. وهي أعظم فتح لدورها الذي يزيد بحسب نضجها في مراقبة ومحاسبة سوء استخدام المناصب والسلطات، وفي استمرار التعبئة ضد الاستبداد، وفي تفكيك الأفكار القاتلة واجتثاث القيم البالية والتوعية بقيم المرحلة الجديدة.

المجتمع المدني

فإذا كان إيماننا أن الحراك الذي نشهد فتوحاته ثورة شعبية لا حركة انقلاب عسكرية ولا تمرد جماعة انفصالية ولا معارضة حزبية سياسية، فإنه لا بد أن ينطلق من حاضنته الشعبية في المجتمع. وفي مركز الحاضنة الشعبية يكون المجتمع المدني قلب الثورة الذي يمدها بالحياة؛ فهو مصدر انبعاثها، ومركز قوة حاضنتها الشعبية، وضمانة صبرها، وضماضة جراحاتها. وستمتد الحياة بالثورة بقدر ما يدوم

نبض قلبها، وستشتعل جذوتها وتعلو شعلتها بقدر ما يشتد خفقانه وتتسارع دقاته. وإذا كان المجتمع المدني هو القلب، فإن الدماء التي تمد جسد الثورة -وأعضائه من الهيئات والتشكيلات في شتى المجالات- بالحياة هي الفكر المؤسس لمبادئه ومنطلقاته والوعي الحاكم لانفعالاته وأفعاله والدعم المعنوي والمادي المعزز لصبره والمداوي لجراحاته والمجدد لطاقاته. وهكذا المجتمع المدني هو مركز الاتصال بين مختلف أعضاء جسد الثورة الذي لابد أن يكون واحدا، وهو المضغة التي إذا صلحت صلح باقي الجسد، ولذا لابد من أن ترعاه كل أعضاء هذا الجسد، وتؤمن له الحماية، وتعترف بحساسية موقعه وأصالة دوره وحاجتها الضرورية لاستمرار فاعليته.

قلب الثورة

وليست الثورة مجرد تغيِيرٍ لرأس النظام أو للنظام نفسه، ولكنها تغيير في عمق نظام الأفكار الذي أسس لظهور ونشأة الواقع القديم وفي عمق نفسية المجتمع التي أسست لرسوخ هذا الواقع واستمراره. وهكذا تلقّفت الثورة إرادة الشباب لتحرير الشعوب من نظم الاستبداد السياسي والأمني وكل مخلفاتها القيمية التي تسلّلت إلى مفاهيمنا الاجتماعية وكل ضماناتها التي تمكنت من نفسية المجتمع فأقعدته. والثورة بذلك للتخلص من النظم التي تؤسس وتسمح لاستبداد الأهواء، ولبناء الأمل الذي يقابلها وهو نظم فكرية تولّد قيما اجتماعية تبني دولة المؤسسات

الأفكار والنفسية

وتطلق حيوية المجتمع في رعاية حقوقه وتعزيز ممكناته وإطلاق قدراته. وفي مستقبل سورية، ليس من فضاء يستوعب العمل على تمكين المجتمع لا التمكّن منه إلا المجتمع المدني في نظام ديمقراطي؛ "ففي النظام الديمقراطي يتنافس المجتمع السياسي على السلطة، وينتظم المجتمع المدني في هيئات تمثل اهتمامات ومصالح المكونات المختلفة في المجتمع، ويركز الأفراد على حياتهم الشخصية والأعمال." (أ.منال الريس، مدخل إلى المجتمع المدني)

حلف الثورة

وكما كسب المسلمون في صلح الحديبية أن يكون لهم ذمة قانونية في جزيرة العرب كمشركي قريش، ودخلت على إثرها قبيلة خزاعة في حلف المسلمين كما دخل بنو بكر في حلف المشركين، كسب أحرار الشعب السوري أن يكون لثورتهم شرعية دولية. تشكّلت على إثرها القوى صاحبة الوزن الاستراتيجي الأكبر في حلف معهم ضمّ قوى محلية عربية وقوى إقليمية عربية وتركية وأوروبية. وليس تقدير قوة الدول ووزنها الاستراتيجي محض تخمين، ولكن -كما فصّل ذلك المفكر التركي أحمد داود أوغلو في كتابه (العمق الاستراتيجي)- ثقل الدولة يتحدد بوزن معطيات قوتها الثابتة مضافا إليها معطيات قوتها المتغيرة في حاصل ضرب الذهنية الاستراتيجية والتخطيط الاستراتيجي والإرادة السياسية. والمعطيات الثابتة لقوة الدولة هي التاريخ والجغرافيا وعدد السكان

والثقافة، والمعطيات المتغيرة هي القدرة الاقتصادية والقدرة التكنولوجية والقدرة العسكرية.

وبوزن حلف النظام وحلف الثورة ترجح كفة حلف الثورة وأحرار الشعب السوري محليا وإقليميا وحتى دوليا مع تقاربها. وبالرغم من رجحان هذه الكفة، لا يضمن هذا غلبة الثورة وأحرار الشعب السوري ما لم يكونوا على قدر من التماسك الذاتي، والنضج السياسي في استغلال واستثمار هذه العلاقات الدولية بإقناع الأطراف بأهليتهم للحركة على الساحة الدولية ومصداقيتهم في الالتزام بتعهداتها وقدرتهم على ضمان تطبيق التزاماتهم على الأرض. وهكذا لا يمكننا تفعيل جدوى هذه العلاقات إلا بالعمل على زيادة تماسك تشكيلاتنا الثورية والعمل وفق القواعد الدولية، فالعالم ليس مؤسسة خيرية لرعاية المحتاجين ولا مركز تدريب يمنح الفرص لغير المؤهلين، ولكنه مساحة لتقاطع المصالح وتبادل المنافع.

التماسك والنضج

ووفّرت الثورة مساحة اكتساب للخبرة الإدارية والسياسية لأحرار الشعب السوري الذين غُيّب جلّهم عن ساحة الفعل والتأثير في بناء الوطن. فبرغم ما شاب تجارب نضالنا من أجل الحرية من تخبط في البدايات وأخطاء على الطريق، فإن نتيجة الممارسة ما نشهده كل يوم من زيادة الوعي والمهارة والخبرة على مختلف الأصعدة في بناء القدرات

خبرة النضال

الذاتية وتمثيل مختلف الفئات والتجمعات وتلبية الاحتياجات المتنوعة والاستجابة للتحديات المتجددة.

ومما يسهم في وضع نضالنا في سياقه الصحيح، أن صراعنا مع النظام المستبد صراع وجود لا صراع نفوذ، وعليه فأساسه فوق دستوري ويعتمد على امتلاك القوة، بخلاف صراع النفوذ الذي يكون أساسه دستوري ويعتمد على امتلاك المبادرة. ووفق المنظور الأساسي المتمثل في أن صراعنا وجودي، علينا أن نراجع دوما سلّم الخيارات من أهداف ثورتنا الجزئية والمرحلية. ومراجعة سلم الخيارات، لا بد أن تكون مصحوبة بقياس قوة تحمل طاولة الفعل السياسي لدينا، وأركانها: حلفاؤنا الدوليين وحلفاؤنا المحليين وقدراتنا المرحلية وحاضنتنا الشعبية. ومع تتبع قوة تحمل طاولة الفعل السياسي، علينا العمل على تعزيز أركانها للارتقاء في درجات السلم.

أساسيات نضالية

وبالنظر إلى ماض كان فيه ضَعفُ قوة المجتمع المعنوية والمادية سببا في استبداد السلطة بتركز القوة فيها، فإن من فتح هذه الثورة على أحرار الشعب السوري سيولة القوة من السلطة واكتساب المجتمع للقوة المادية إلى جانب ما اكتسبه من قوة معنوية تمثلت في حريته وفاعليته. ولكن مكسب سيولة القوة للمجتمع قابل للانقلاب ووبالًا عليه إذا لم يحسن توظيف قوته في مجرد التخلص من الاستبداد وبناء بديل له يضمن حل

توظيف القوة

النزاعات وإدارة الصراعات وتداول السلطات بطريقة سلمية؛ حتى يعيد المجتمع بناء دولة المؤسسات التي تضمن مكتسباته، وإلا كان من أثر سوء استغلال هذا المكسب تفتت المجتمع وضياع الدولة.

وختاما، من واجبنا استدراك ما أمكن؛ فما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه، وأن تأتي متأخرا خير من أن لا تأتي أبدًا. وضمانة ثورتنا روح الأحرار وعقيدة الثوار؛ فالثورة كما وصفها مالك بن نبي: "ليست كإحدى الحروب تدور رحاها مع العدد والعتاد بل إنها تعتمد على الروح والعقيدة." ولا يكفي أن نؤمن بالثورة حفظا لحق الشهداء من أحرار الشعب بل لابد من العيش لتحقيق أهدافها وتعزز إيمان الآخرين بها.



خاتمة

الخاتمة

إن غاية (ترتيب العقل الثوري) لا تتحقق إلا بدخول الأفكار الأولية المطروحة فيه في حيز التداول المعرفي بين المهتمين بالفكر ونشر الوعي؛ حتى تنال من النقد والمراجعة والتحرير والبسط لها والتفريع عليها ما يسهم في إنضاجها، ليتمكّن بعضها من وجدان الناشطين فيعيدوا إنتاجها في قوالب تدخلها في التداول الثقافي لعموم الشعب السوري من خلال المنتديات الحوارية والمقاهي والصالونات الثقافية والأعمال الأدبية والفنية ومختلف وسائل التواصل الاجتماعي وغيرها؛ لتنزل على أرض الواقع وتتمثل في أشكال عملية.

وبقدر ما أثمن قراءتكم هذا المنتج الفكري، أثمن ما يحقق غايته من جهود فكرية وأدبية تُسهِم في إنضاج ما طُرح فيه من أفكار، وفي تبسيطها لإدخالها في التداول الثقافي لعموم الشعب السوري، وفي تنزيلها في قوالب عمليّة، ويشرفني مشاركتكم لي هذه الجهود ونشركم لها على صفحة الكتاب في موقعي facebook وgoodreads.